

سعدي يوسف

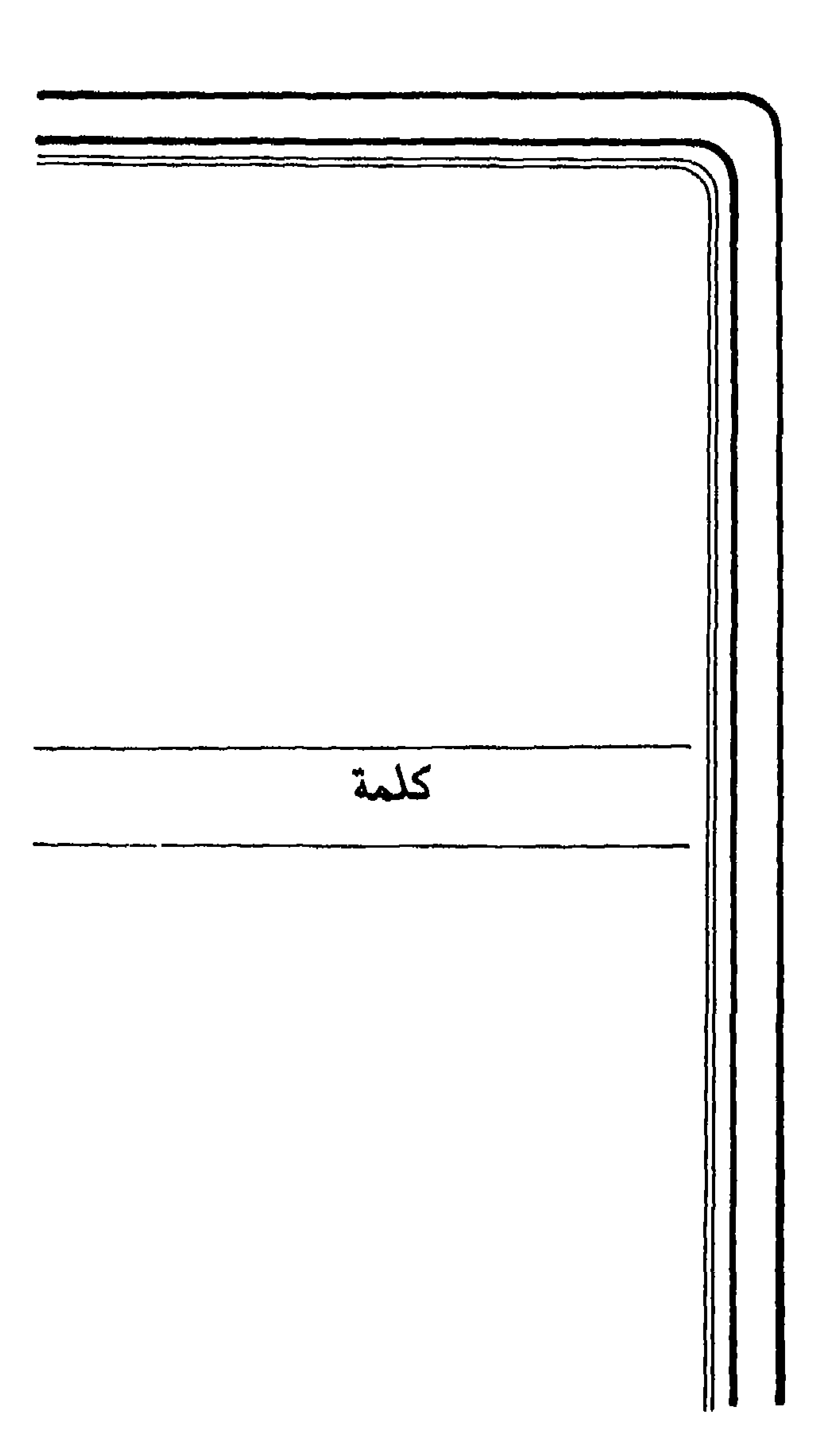
سماء تحت راية فلسطينية

سماء
تحت راية
فلسطينية



سعدي يوسف

سماء تحت راية فلسطينية



كلمة



كتبت هذه النصوص ببيروت.

أما أكثرها فقد كتب ونشر في تلك الشهور الصعبة من صيف 1982 .

لكن النصوص كلها تشترك في انها تدور في سماء ذات راية فلسطينية.

لقد حاولت، قدر الإمكان، إعتماد التسلسل الزمني في ترتيب المادة، رغبة في إعادة تصوّر ما جرى، ومقاومةً لنسيان يجعلنا أحياناً ننكر حتى أجمل ما فعلناه.

قد لا تتمتع هذه النصوص بإستغراق المقالة، وهدوء العصب، بسبب من مدار اليوم العصيب الذي كان مضطربنا في « الفاكهاني » . . لكنها قد تصلح ـ الى هذا الحد أو ذاك ـ شهادة ما.

س . ي

« م » .. والبَحر

« م » حين تأتي، تأتي منهكة، مترنحة من الاعياء، تلقي بنفسها على اول موضع صالح للتمدد، ثم تروح في نوم عميق. لكنها تظل حريصة دوما على تعيين موعد استيقاظها، كي ننبهـها. بعد استيقاظها، تحتسي، متلذذة، قهوتها او شايها، وتشارك في حديث الساعة الذي لا ينقطع، وما ان يهبط المساء حتى تتناول كيسها بديل الحقيبة، وتغادرنا، سالكة الأزقة المتعرجة المؤدية الى البحر.

انها شابة لها طفلة. زوجها تطوع. وهي تحب زوجها. قالت: سأكون معه. أودعت جدتها، الطفلة. واخذت سلاحها لتكون الى جانب زوجها في الموقع. كانت تقول : انا احبه. ولا بد ان اراه كل يوم. حسنا. لماذا اقطع كل يوم، الطريق اليه، مرتين ؟ وبعد. . ثمة جمال البحر الليلي. أسلحتنا بأيدينا، والبحر أمامنا. . بارجة اسرائيلية تبدو في البعيد البعيد مثل شبح خفي. نحن هنا ننتظر. لن تطالنا مدافع البارجة، لكن لو فكروا بإنزال جنودهم الى هذا القاطع من الشاطىء فلسوف نلقنهم درسا صعبا. أتعرفون ؟ كل شيء في الليل يبدو عجيبا. من الضفدعة الى البارجة الى النجم. حالتنا حالة. خنادقنا جيدة. والتراب معلق دائما في الهواء. في ظهيرة ما كدت اختنق بالتراب، ولا بد ان الجميع كانوا كذلك. قلت لأحد الشباب : يا فلان، التراب كثير. . لم لا تغلق الباب ؟ حالة الذهول الغامر جعلت الشاب يستدير، بحركة غير ارادية، كأنه يحاول اغلاق

باب . . اخيرا ضحكنا جميعا ونحن نتنشق الهواء المترب .

« م » تصدق ما حولها، ولا تصدق.

تقول : نحن نقاتل، مثلما قاتلنا، بل اشد. هذا قدرنا . لكن . . أيأتي يوم من الأيام يقال لنا فيه : انتهى الأمر ؟ اين ستكون حريتنا آنذاك ؟

هذه الشوارع التي نسير فيها تحت وجوه الشهداء . . اتغلق يوما ؟ والكتب والمكاتب ؟ والمرأة التي انهت عبودية المطبخ ؟ وهذه النار التي اوقدت في المنطقة كلها الحريق الخفي . . الدافق المتدفق يوما . .

لن اصدق ان يوما كهذا آت.

« م » مع زوجها، مع المتطوعين في ذلك القاطع من الشاطىء، تمنع اليوم المشؤوم.

« م » في الخندق، تسف التراب، كي نظل نتنفس اريج البحر الطليق، وكي نسبح في البحر الدافيء، حين تعود ايام السباحة . قلت لها : اريد ان ازوركم، ان اقضي ليلة بينكم.

قالت : اهلا وسهلا . هات سلاحك. وتعال الآن.

قلت : لكني لا اعرف استخدام السلاح !

فتحت عينيها واسعتين.

المساء يهبط . و« م » تتناول كيسها. تلقي علينا التحية ، وتغادر . بعد قليل تسلك الأزقة المتعرجة المؤدية الى البحر، لتبلغ موقعها، خندقها . . وتنتظر . .

1982/6/18

البارجة

هذه الظهيرة اقتربت من البحر. . طوال الأيام السالفة ظل البحر يبتعد، حتى غدا ابعد من النجم.

وبيروت استدارت عنه، الا بنادقها وعيون مقاتليها.

أقول، هذه الظهيرة اقتربت من البحر، والسبب بالغ البساطة، اذ فتح لي صديق باب شقته، وسلمني مفتاحها، وغادر الى مكان اكثر امنا. من الشرفة العريضة ارى السماء منطبقة على البحر، الأفق مكفهر. . كم اختلف المشهد!

لم يعد المنظر شديد الاغراء.

لكنني رأيت في البعيد، ما لم اره قبلا. رأيت البارجة. لقد كانت هناك اكيدا. بارجة اسرائيلية أو اميركية، لا فرق. المهم انها كانت هناك.

الوقت يمضي بطيئا، وهي هناك. ثابتة مثل جبل صغير. لقد غدا البحر ساحة، ساحة هائلة ينشز عليها هذا الجبل الرصاص. الوقت يمضي بطيئا، والبحر منبسط، لا موجة ولا نسمة. ومع مرور الدقائق تتغير الوان السماء، البحر يزداد دكنة، والبارجة تزداد دكنة، ظللت اراقب البارجة، حتى كلت عيناي، ابتعدت عن الشرفة، ودخلت الشقة. شربت ماء، وعدت الى الشرفة اراقب البارجة. لكنها غابت

دخلت في دكنة البحر. ان لون التمويه الذي ترتديه مناسب تماما. هكذا بقي البحر، ساحة منبسطة، ينبسط فوقها مساء داخن. والبارجة الأميركية ـ الاسرائيلية، مموهة في مكان ما.

لكن التمويه لن يجدي.

ان البارجة تظل مكشوفة، وأمام آلاف العيون والفوهات تظل هدفا.

لتأت البوارج. ليمتلىء البحر بالبوارج. ليرسل القتلة مزيدا من البوارج.

ليأت العالم ـ العدو كله.

ليعلنوا في هذه التظاهرة المتوحشة انهم قادمون ليذبحوا الثورة، في هذا المكان من الكوكب.

ليضعوا السكاكين في افواههم.

لتأت الطائرات، مثلما اتت.

نريد فقط ان نقول : اننا نقاتل. اننا نقاتل العالم ـ العدو.

واننا لن نهن لحظة.

نقول هذا، وامامنا البارجة، مموهة او غير مموهة، لكننا في هذا كله سنظل ننتظر العالم ـ الصديق.

اليست مجزرة هذه؟

والعالم ـ الصديق . . ايظل ينتظر. ؟

1982/6/19

المتاريس

على امتداد الروح المقاتلة، تمتد متاريس بيروت.

على امتداد الشوارع المكفهرة تمتد المتاريس. والخنادق تسجل ظهورها الخفي، خنادق التراب الأحمر المبلل برطوبة البحر. والمقاتلون يمنحون المشهد ثقة لا حد لها. أنت تسير الآن في المدينة المحاصرة، لكنك لا تشعر بالحصار. ان حرية عليا تتملكك. انت قادر على الامساك بمصيرك، بمصير كل ما تهوى في هذا الكون. أنت الآن في بؤرة التاريخ، في بؤرة الثورة. للمرة الأولى يحبس العالم أنفاسه، وأنت في دائرة الضوء الحاد. للمرة الأولى تضع أنت العالم أمام الامتحان الكبير. الشوارع تغلقها المتاريس والسواتر. ومنافذ المدينة لم تعد منافذ للعدو الماثل على الأبواب. قلعة للحرية بيروت، وموقع حقيقي للثورة المستميتة.

لكن متاريس بيروت، ليست كتلك المتاريس التي قرأنا عنها، أو رأيناها، أو قاومنا من ورائها.. يوما ما. متاريس بيروت من بنية اخرى.. انها متاريس ذات كفاءة عالية، متاريس مدروسة، مخصصة اساسا لرد الدروع والقذائف الثقيلة التي استعملها العدو في غزوه البربري.

وهؤلاء الشباب الذين يصنعون من التلال الترابية أسوارا من الأكياس، مخصصة وسواتر. هؤلاء الشباب الذين يمنحون الصمود

ملموسيته . . كم هم متواضعون، كم هم جميلون، وكم هم يقظون منتبهون . ان سلاحهم معهم ، حتى وهم يملأون الأكياس ، ويندفعون في اغنية المجارف. لم تعد المدينة مثلما كانت. لم تعد الشوارع كما عهدتها . . لقد تبدلت الخارطة . وان جغرافيا جديدة تولد امام عينيك في كل لحظة .

في المساء تسلك شارعا مؤديا الى حيث تريد. وفي الصباح تجد المتاريس مكان الشارع. لقد اغلق الشارع. وتجرب شارعا آخر، لتلقى المتاريس ايضا .

لا مشكلة بالنسبة لك، انت الذي تذرع العالم ماشيا على قدميك . لكنها بالتأكيد مشكلة لذي السيارة . . كيف اذن بسائق الدبابة ؟

بيروت تتماسك اكثر فأكثر ، تتمسك بالأرض والحجر أكثر فأكثر ، تلتز علىسلاحهااكثر فأكثر ، ومع كل « إنذار » أو تهديد، تغدو المدينة غابة من الصوان .

كنت مبتسما واقفا

لامع المقلتين

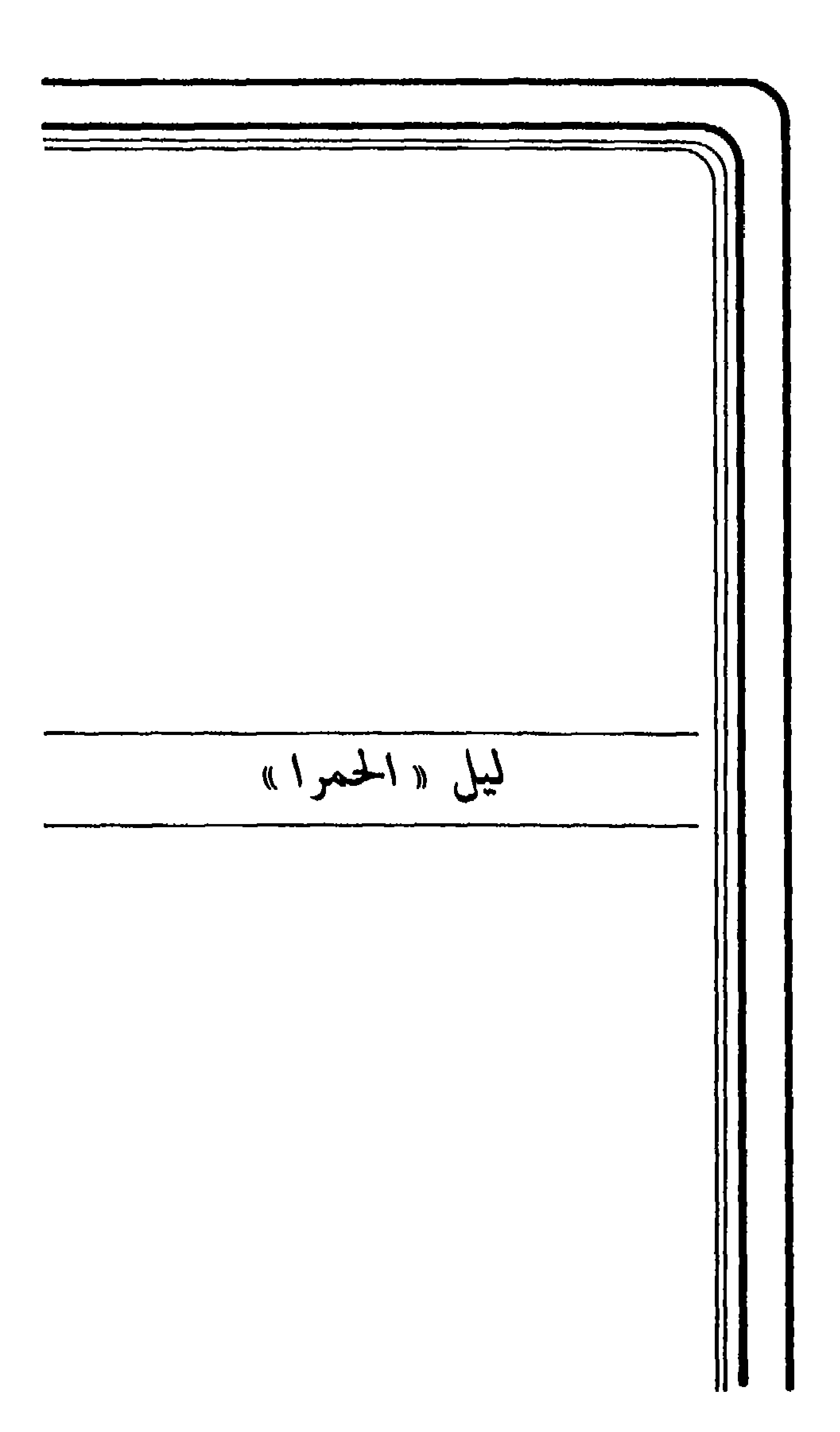
دامع المقلتين

في دخان المتاريس

يعلو قميصك راية .

الأبيات من قصيدة عن « لينين » . . وفي أيام بيروت هذه ، بيروت المتاريس، هواء للذكرى، هواء للمقايسة .

1982/6/20



ليل « الحمرا »

غدا، في الثانية عشرة ظهرا، تنتهي مهلة الانذار، الانذار للساعات الثماني والأربعين (اكتب عن التاسع عشر من حزيران هذا)، وغدا قد يحدث كل شيء، أو لا شيء.

مساء التاسع عشر من حزيران هذا، كنت في الحمرا. انني لا أهوى التجول في هذه الأمسيات المربكة، وبخاصة حين تكون الحمرا مضطربي من الأرض. فالدنيا ليست أماناً، والكهرباء مقطوعة، وأنا بعد هذا كله شخص غريب، تقطعت به الأسباب فجأة، دون أن يعرف خبايا بيروت وخفاياها، ولربما ضل الطريق الى ملتجأه في مثل هذا الليل، وفي مثل هذه الشوارع والدروب، حيث يستهدي الناس بمصابيح البطارية الدقيقة مثل اقلام حبر. لكن كان علي أن أغادر الشقة، لأسلم مادة الى صحيفة « المعركة »... في عددها الأول. سهل ان يغادر المرء شقته، لكن الصعوبة هي في العودة، إذ تشتبك المسالك والدروب والمنعطفات، وتضيع الشواخص والثوابت في العتمة العجيبة، فلا تدري اي مدخل تدخل، وأي سبيل تسلك، والى اي وجهة يقودك هذا الدرب أو ذاك. وفي تخبطي المقلق، رأيت « س » كان مع صديق له، يجلس في الناصية، على دكة صغيرة ذات مسكب زهور، وهو يأكل شطيرة « فلافل » . ماذا تفعل هنا ؟ كما ترى.. أين يقضي المرء مساءه في « الحمرا » ؟

يا للحمرا !

نمضي معا. الشارع الرئيس مكتظ بالسابلة. السيارات تقل شيئا فشيئا. لكن هؤلاء الناس الذين يضطربون في ليل الحمرا هذا ليست لهم علاقة ما بأحلاس الليل في الحمرا القديمة. . رزق الله على الحمرا القديمة ! ان وجوههم النحيلة المرهقة ، وملابسهم ، وحركاتهم، تنتمي الى عالم غير ذاك، تنتمي الى عالم صعب، جاد، مفعم بالخطر والأمل. . وهم في هذا الليل الرطب يسيرون، لا مشارب ولا مقاه ولا مراقص ثقيلة الأضواء. هؤلاء الناس يسيرون في ليل الحمرا، وكأنهم يسيرون في احلامهم، متاعهم القليل ثقيل، وعلى أكتافهم مسؤولية عالم متكامل.

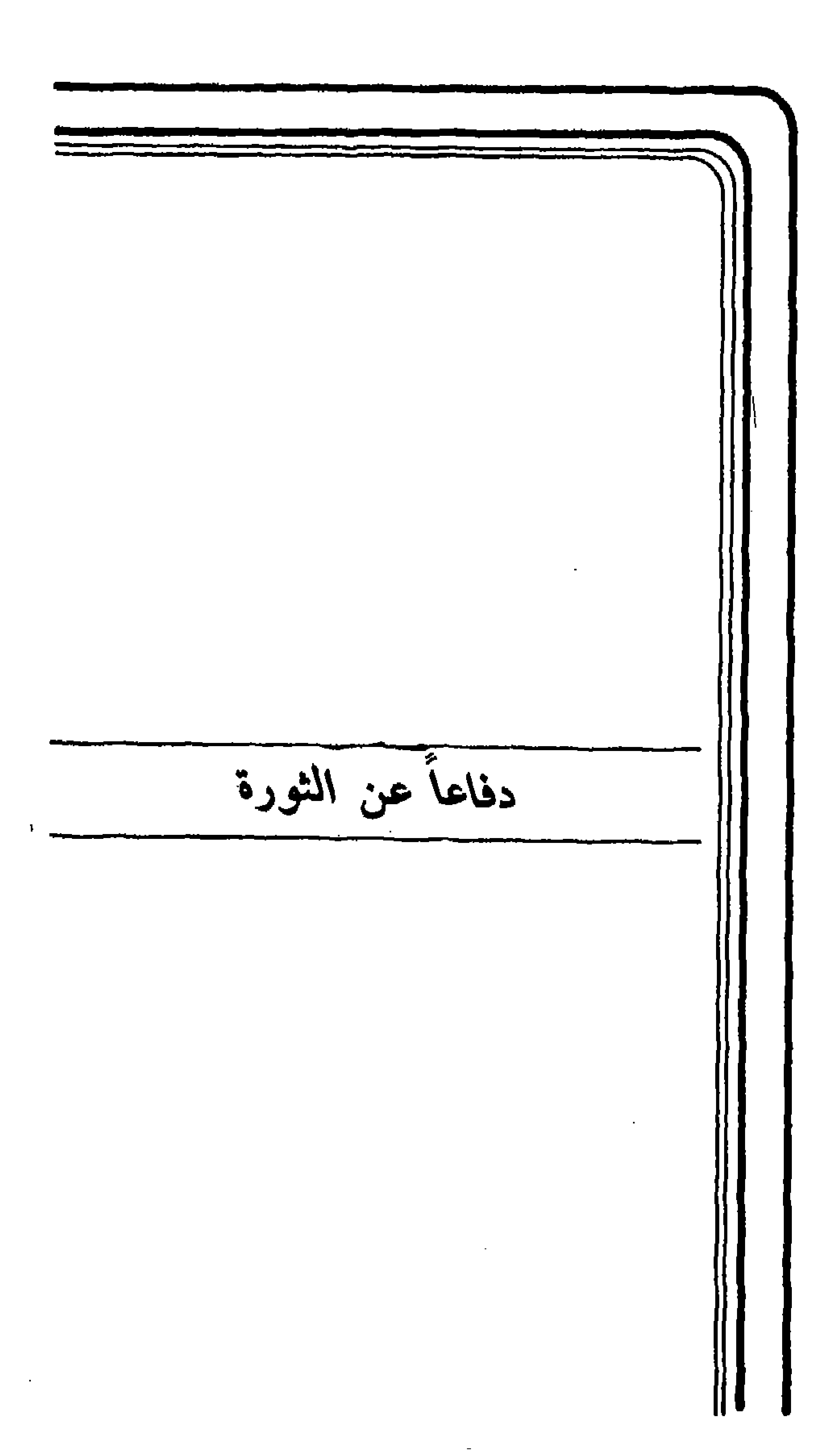
●

وغداً، في الثانية عشرة ظهراً، تنتهي مهلة الانذار. في مدن غير بيروت، قد يحل الرعب، ويتدافع الفزع، قد تجد الانهيارات المعنوية والعصبية، قد تلحظ الازدحام الشديد على باعة المواد الغذائية. أما هنا فالمدينة تبدو أكثر تماسكا مما كانت. المدينة تلتم على نفسها، تتصلب، وتمسي قاسية كالفولاذ، وهي الرقيقة الأنيقة مثل وردة متوسطية.

●

غداً، في الثانية عشرة ظهراً، تنتهي مهلة الانذار.

1982/6/21



دفاعاً عن الثورة

تبدأ الخطوة لئلا تنتهي.

هكذا تقضي الطبيعة، والى هذا تفضي الحقيقة الاجتماعية، وإن إتخذت هنا مساراً فيه تشعباته ومنعرجاته وعقباته. ونحن الكتّاب المعتنقين الثورة خطونا خطوتنا الأولى، مؤمنين باستمرارها، عارفين اي المراقي الصعبة سنطرق، وأي المجاهل سنرود، عارفين في الوقت نفسه اننا نحقق انفسنا فيما نحقق للناس، وان تواتر خطانا سيجعل النسيم طريقا لأحبة، وان بين الخطوة والطريق ما بين الحدقة والنور. ولا أقول اننا دفعنا من شبابنا وحياتنا ثمنا عزيزا، لا اقول اننا استمتنا وكابرنا، لا اقول اننا اسسنا بالثمن العزيز والاستماتة والمكابرة حركة ثورية في الأدب العربي الجديد..

لكن لي الحق في القول بأن الثورة هي التي عصمتنا، ودرأت عنا، ومنحتنا قوة المكابرة والعناد، ووهبتنا من فيئها، في زمن المزاد النفطي، ومزايدات الأنظمة. الثورة تذود عنّا، مثلما نذود عنها، نتأسس عليها، ونؤسس لها، ونمضي الى المستقبل معها.

أما ما نراه هذه الأيام، فليس تشعباً في المسار أو منعرجاً أو عقبة.

ما نراه هذه الأيام هو محاولة قطع الرقبة، فصد العرق حتى قطرة الدم الأخيرة، وإقامة جدار حديدي بوجه المستقبل، قتل الثورة وثقافة الثورة، وعودة الأميركي الكريه.

من هنا الخطر والخطورة.

ومن هنا أيضاً اهمية الثبات في الموقع، والدفاع المشرف عنه حتى النهاية المجيدة.

مقاتلون .. اجل.

دفاعا عن الثورة.

دفاعا عن الهوية الفلسطينية.

دفاعا عن لبنان.

دفاعا عن هذه الأمة التي خذلها حكامها.

1982/6/22

موقع متقدّم

حين زرته قبل أيام، في موقعه بوسط المدينة، كان فرحا باختياره، فرحا بالانسجام الذي حققه بين فكره وفعله، فرحا بتخلصه من عادات كان يود الخلاص منها، وها هي ذي الساعة قد دقت. سلاحه بيده، ورفاقه حوله، وهو يؤدي واجباته بدقة نموذجية قد لا تتوافر لدى العديد من زملاء حرفته، وهو الشاعر. قلت له : لعلك تستنقذ جمرة من تحت الرماد، تلك الجمرة التي كانت تتقد في نفسك، فأخنت عليها الأيام البطيئة، واختيارات في العالم الثالث لا معنى لها، ولعلك هنا تحل، مرة واحدة والى الأبد، اشكالا مستعصياً أرهقك، ونكد عليك بعض أيامك، وجعل الجمرة بلون الرماد. ثم ماذا سنقول لأنفسنا، وللآخرين الذين سيسألوننا، ان تركنا حتى هذه الأيام، تتسرب من بين أصابعنا كذرات الرمل ؟

الساعات تمر في ذلك الموقع بوسط المدينة، لاهثة، ذات ايقاع حاد متسارع، والسلاح يغدو اكثر مرونة في اليد، وأكثر اطمئنانا اليها. . هذه اليد التي طالما امسكت بالقلم لتكتب قصائد ملأت اربعة دواوين.

المساء يأتي متمهلا، حذرا. الظلام يهبط شيئا فشيئا على الموقع. من البعيد لهب حرائق، وانفجارات. المدينة صامدة.

●

غسق احمر على البحر. شبح بارجة يتضاءل في الأفق. عصافير وحمائم تفزع لصوت قذيفة، وأنا في الشرفة الوسيعة. اتذكر الأصدقاء، متباعدين في المدينة، متوزعين على العواصم، حاملين همهم الكبير مثل متاع الدرويش. امر حسن ان تكون هنا ان تظل تتنفس. وان تمنح العالم نفسك كما لم تمنحها يوما. هكذا الأمور في منعطفات التاريخ الكبرى. ليست مسألة ان ربحنا او لم نربح. نحن على اي حال، في الأمثولة النادرة.

●

الباب يطرق. يدخل الشاعر المقاتل.

قلت له : اردت ان ازورك ثانية في الموقع.

قال : لكننا نقلنا من هنا، نقلنا الى موقع متقدم، الى خط الدفاع الأول.

سألته : كيف ؟ بالكلاشن ؟

اجاب : الـ « آر. بي. جي »، والكلاشن. ال. « آر. بي. جي » اولا . .

قالت : لكنك لا تعرف استعمال هذا السلاح.

قال ضاحكا : دخلت دورة تدريب.

الغسق الأحمر يتلاشى، تطبق العتمة الداخنة على البحر. وفي بعض نوافذ البناية المقابلة توقد شموع، والشرفة تستكين الى دعة مسائية اليفة.

نظر الى ساعته. الثامنة الا الربع، وعليه أن يلتحق بموقعه المتقدم في الثامنة بالضبط.

1982/6/23

حقل الألغام

في احدى قصص شولوخوف القصيرة عن الحرب الأهلية في بلاده يأسر « البيض » عدداً من « الحمر ». ويبتكر البيض طريقة جهنمية لاعدام المجموعة الحمراء، إذ يدخلونهم من ثغرة حقل الألغام، ويقودونهم الى وسطها، ثم يحيط البيض بحقل الألغام، ويبدأون يطلقون الرصاص على أقدام الأسرى، واحداً واحداً، آنذاك يضطر الأسير الى رقصة قاتلة، فهو يقفز تلقائيا حين يطلق الرصاص على قدميه، مبتعدا عن مكانه، وينط مثل عصفور مذعور من بقعة الى اخرى. وفجأة يتناثر جسده ممزقاً في انفجار لغم، بينما رفاقه الذين سيأتي دورهم ينتظرون نهاية اللعبة القاتلة أو بدايتها. . هكذا حتى يصفي البيض المجموعة الحمراء بأكملها.

●

ايام بيروت هذه تذكرني بخطة البيض الجهنمية، ان العدو يريد أن يحول بيروت الغربية بأسرها الى حقل الغام كبير، لكنه حقل « عصري »، متنوع الألغام، بعضها بحري ينطلق من بارجة، وبعضها جبلي ينطلق من مدفع، وبعضها جوي يندفع من طائرة أميركية متطورة. . اضافة الى سيارات مفخخة هنا وهناك، وشائعات تفعل فعل الألغام.

ما يسمى بالضاحية الجنوبية أو مشارف بيروت لم يعد الساحة الوحيدة للعبة الأميركية، فالقصف يطال الآن بيروت الغربية كلها، الروشة، الحمام العسكري، المزرعة، فردان، الحمراء.. الخ، ولم يعد اللبنانيون والفلسطينيون يتلقون وحدهم هدايا هيغ ووايينبرغر وحبيب، فلقد تحمل السوفيات والألمان الديمقراطيون نصيبهم من هذه الهدايا، حتى الأونسكو كان له نصيبه.

حين إنفجرت السيارة المفخخة في فردان، قريباً من سيار الدرك، قال لي احد الشباب، هذا الصباح جئت من برج البراجنة، لقد قصفوا البرج بوحشية. وقيل لي ان فردان أمينة، اذ ليس فيها أي مظهر او طابع لنشاط عسكري، منطقة سكنية بحت.. هكذا جئت هرباً من القذائف لأواجه هنا الانفجار.. اللعنة! أي وحوش هؤلاء.. كان الشاب مواطناً لبنانيا يجنح الى السلامة في مثل هذه الظروف، شأن الكثير.

●

لكن العدو اخطأ الحساب هذه المرة أيضا.

فبيروت، اولا، مدينة عربية صامدة، وليست معسكر إعتقال صهيونياً يضم عشرات الآلاف من الأسرى.

وبيروت، ثانيا، محصنة بأهلها، بشبابها، بسلاحها، وهي ليست مكتوفة اليدين أمام الهجمة الشرسة.

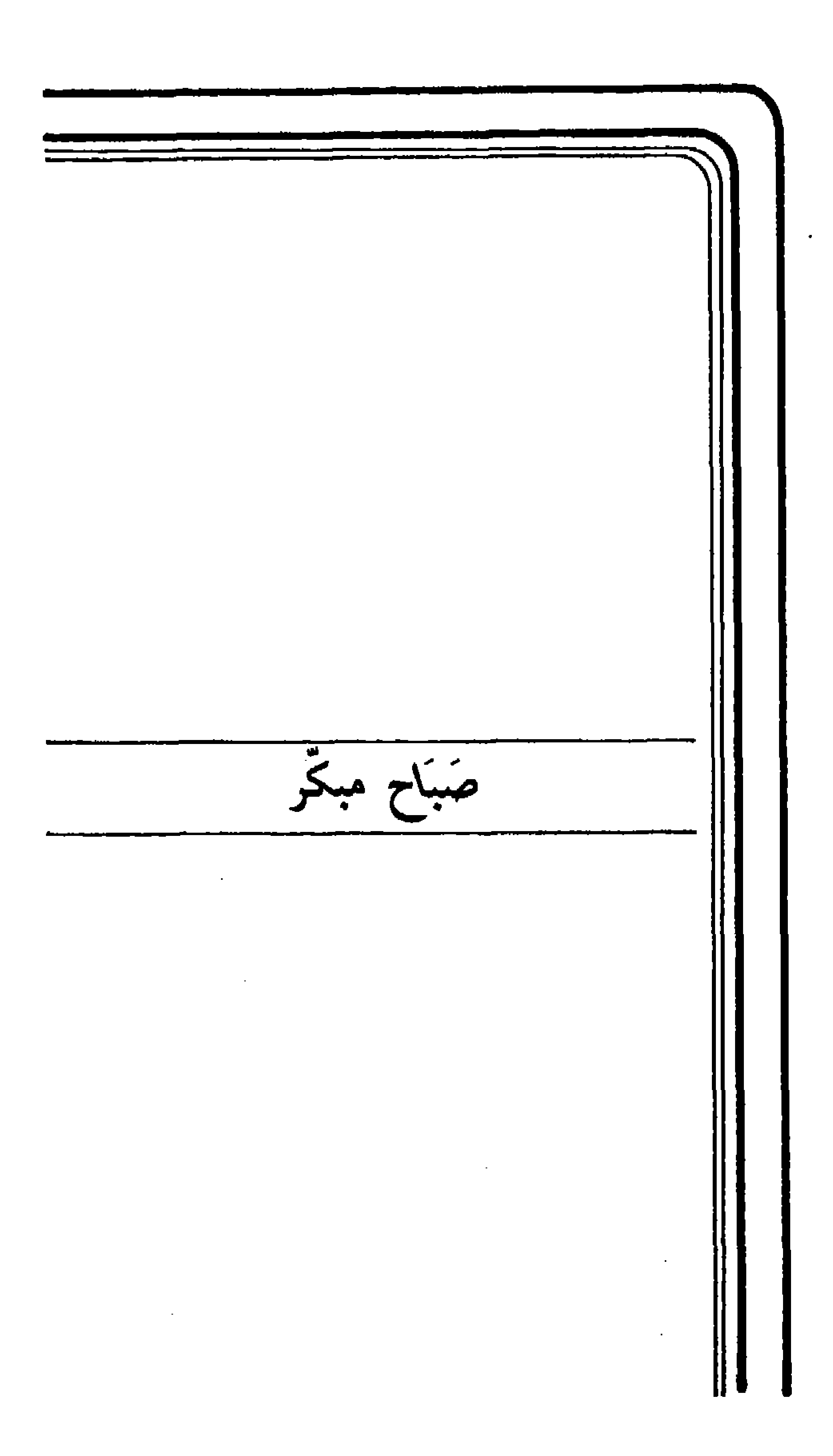
وبيروت، ثالثا، تستطيع أن تضرب بأكثر من ذراع، في أكثر من جهة.. إبتداء من بساتين «صور» وإنتهاء بالجبل والبقاع، والعدو يعرف هذا جيدا.

●

ومع هذا كله، اقول لكم الحق، الحق كله، انني في الساعة الرابعة

من صباح هذا اليوم (الثالث والعشرين من حزيران) سمعت للمرة الأولى اجمل صوت يوقظني : فمن اعلى الشجرة المتطاولة عند الشرفة، كانت العصافير الآمنة تطلق أغرودة الصباح العذبة، هذه العصافير التي طالما شردها القصف المبكر !

1982/6/24



صَبَاح مبكّر

أمس، الخامس والعشرين من هذا الشهر، قررت أن أزور « الفاكهاني ». ثمت اشخاص (انا بينهم) يستيقظون في الصباح الباكر، ليجدوا ما يفعلون. هذا في الأحوال الاعتيادية. أما في بيروت المحاصرة فما عساني صانعا في الصباح المبكر؟

طوال الليل ظلت صواريخ الطائرات وقذائف المدفعية كابوسا ثقيلا لا ينقطع لحظة، وأنت مرهق مرهق. تفكر بالمدينة التي تحب، وبالمرأة التي تحب، تفكر بالأصدقاء، بالمقاتلين الذين رأيتهم حول بيروت، بالأبنية التي هجرها أهلها، وبالبلاد البعيدة حيث سقط خمسون ألف جندي في مهزلة اللا معقول. هؤلاء الخمسون الفا من القتلى في سباخ خوزستانوسوسنكردودزفول وعيلام، كم تمنيت لو كانوا أحياء. شباناً يقاتلون في هذه الأرض المستباحة، الى جانب اللبنانيين والفلسطينيين والسوريين، الى جانب كل من حمل بندقية يذود بها عن الشرف العربي.

ها أنتذا وحيد في شقتك. تنظر الى البحر ـ العدو، والسماء ـ العدو. وتحاول ان تجد معنى ولو فانتازيا، لهذا الاستفراد الذي تتعرض له الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية، ربما لم تكن دقيقا في جعلك « الاستفراد » وصفا لحالتنا، لكن من الصعب عليك، وأنت وحيد في شقتك، ان تهتدي الى تعبير آخر، الى صيغة

تتمتع بـ « موضوعية » ما . .

فلتخرج من هذا المكان. لتخرج من مطالعة البحر والسماء، ولتحاول ان تجد ما يصلك بالبشر والحجر، وبالأمكنة التي تؤثرها، حتى لو كانت هذه الأمكنة اطلالا، حتى لو كانت مهددة بالطيران المعادي (أتذكر الطيـران الصديق ؟ . . .) .

قهوة الصباح لم تعد بذات المذاق الأول .

أنت تكتب الآن . . حسنا . . لكن الطائرات تجيء، تحسها داخل رأسك، وتتساءل : استكشاف ام قصف ؟ ما الفرق ؟

قررت أن أزور « الفاكهاني » وزرته، فعلا، في الصباح المبكر الدكاكين مغلقة كلها، المقهى الذي كنت ترتشف فيه القهوة الأولى او الثانية مغلق ايضا . . زجاج النوافذ الهشيم يفرش الشوارع المكفهرة . في الأطراف البعيدة للفاكهاني رأيت ثلاثة اشخاص أو اربعة يسيرون متعجلين . . لكنك كلما ازددت اقترابا من وسطه، من مكاتبه القديمة، ومطاعمه الصغيرة وجدت الوحشة وحسب، اكوام من الرمل والتراب سوف تكون سواتر ومتاريس، أكياس من الرمل عالية، وملصقات الشهداء التي اخذت تتناثر بسبب القصف . . مقاتل يقطع الشارع مسرعاً وسلاحه بيده .

●

لم تجد أحداً تعرفه .

الوحشة تستولي عليك، وتبدو الشوارع والأمكنة والأبنية صوراً لرواية قرأتها منذ عشرات السنين .

يا للعنة !

●

فجأة، تجد من يحييك، ها هو ذا «أبوجيكور» يخرج من زقاق، كما ينبعث ساحر..

إبتسامة صعبة تشق طريقها الى وجهه.

يقول لك: ما يزال هناك مقهى صغير يمكن لنا ان نجلس فيه قليلا.. انني أسميه مقهى الحرب، فهو الذي يظل وحده مفتوحا، حتى في أسوأ الظروف.

تمضيان معا الى المقهى. ترتشفان قهوة الصباح، تقرآن، اذن، ما يزال «الفاكهاني» يحيا.

1982/6/25

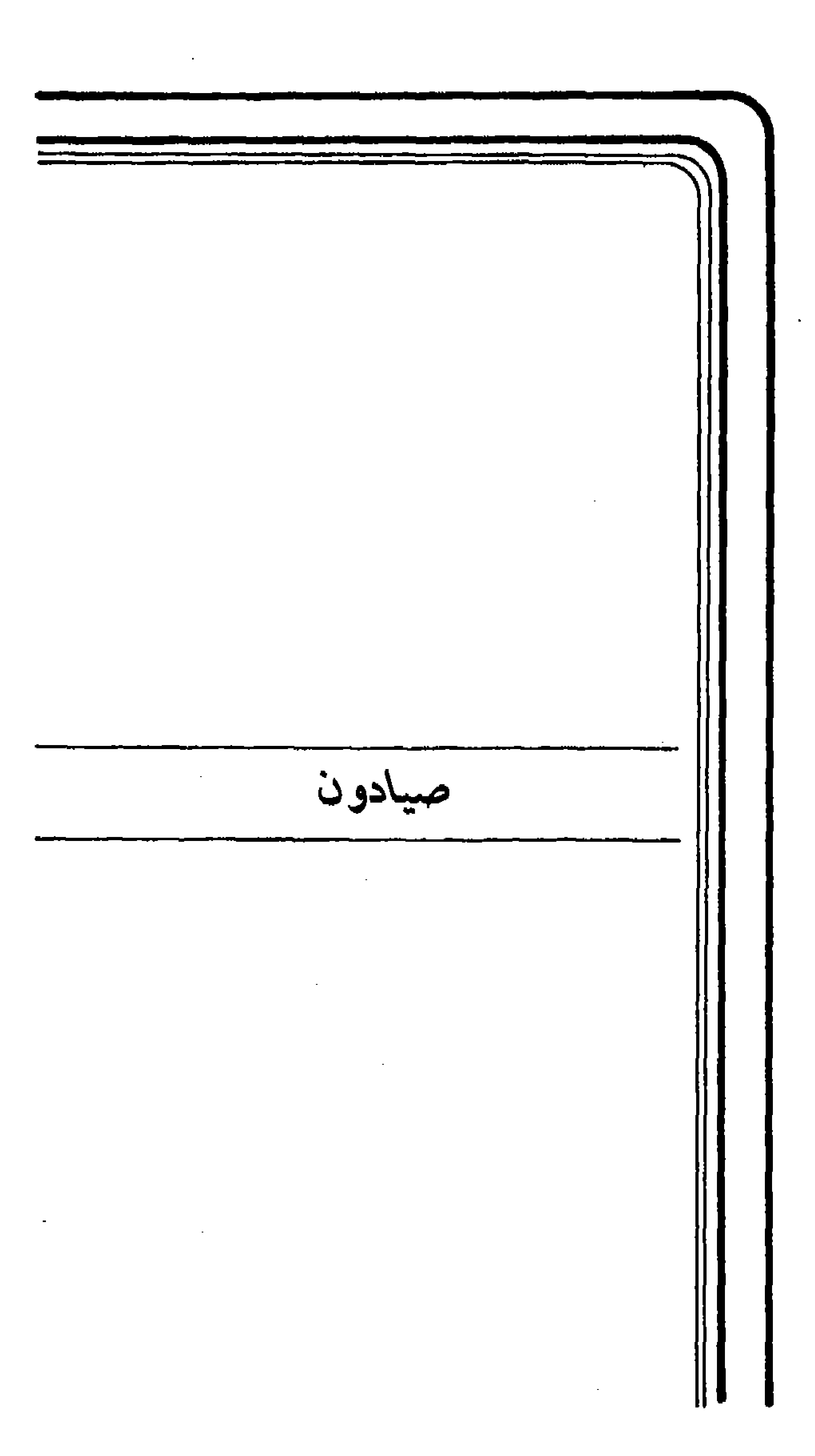
حرب الشعب

مع هدير القذائف والمضادات الأرضية وإنفجار الصواريخ، ومع الشواطىء والشوارع وهي ترتدي لون المقاتلين، وثيابهم وسلاحهم مع المشارب والمقاهي والملاهي المغلقة، مع توتر المساء ودورة الصباح المكفهرة، مع الكتابة في القبو على ضوء الشموع أو مصباح الغاز، مع الخبز الذي يشح، والماء الذي يندر، مع الملابس تتسخ والقلب ينصع، مع بيروت العربية.. نتقرى، بالملمس الخشن، ذلك النشيد الذي غنيناه طويلا وافتقدناه طويلا : حرب الشعب.

هكذا خرجنا، في الفجاءة الكبرى، من حصار « الشارع الأخير »، من « الكيلو متر المربع » الذي أرادوا هدم جدرانه على رؤوسنا وبنادقنا وأحلامنا، من « الغيتو » الذي كادت السبل المنتهية اليه، والعائدة منه، تتقطع بها الأسباب، وتنقطع الوسائل، حتى لكأن عالما كاملا يأتمر بنا، ويكيد لنا، ليتركنا جزرا للضواري، أو لحماً على « وضم ».

نحن لم ننكفيء كي نظل وحيدين في « الشارع الأخير ».. وإننا لنعرف أننا والناس، كالسمك والماء، نعرف أننا الآن في ساعة الضيق الشرسة، وان المعادلة التي أحكمت عناصرها وأطرافها ضدنا سوف تبلغ بدايتها أو نهايتها يوما ما، وكنا في ساعة الضيق هذه نتمسك بـ « الشارع الأخير » ونتماسك، ظهورنا الى الجدران إتقاء الضربة

الغادرة، وعيوننا الى الآفاق الرحبة، ورئاتنا تتنفس هواء عالم نحلم به، ونعمل من أجله. حتى إذا جاءت الغارة الأولى، أحسسنا جميعا بأن ما انهار، مع الملعب الرياضي، كان جدران « الغيتو » وأسواره. وأحسسنا بأن الوجوه التي تشمعت وتشبعت بالهواء الثقيل تكتسب نضارة مبتغاة، ان ثياب المقاتل التي طويت زمنا قد آن لها ان تنشر، وان البندقية التي كادت تصدأ تتحرق الى النار. لكننا، أحسسنا أكثر من هذا كله بالماء الدافىء للنهر العظيم، للشعب العظيم، يغسل عنا أدواءنا ويعيدنا من جديد، الى ذلك النشيد الذي غنيناه طويلا، وافتقدناه طويلا : حرب الشعب..



صيادون

« صور » ليست في الذاكرة.

إنها المرفأ، والناس، والأثر الروماني، والبنادق تحت أشجار البرتقال، وهي أيضا الصيادون الذين عرفني بهم، في مقر نقابتهم، شوقي بزيع.

كان الصيادون شبابا، فالشيوخ لم يعودوا قادرين على مغالبة البحر وزورق الدورية الصهيوني. أما هؤلاء الشباب فلديهم من الشجاعة والعناد ما يمكنهم من قهر البحر والعدو، ومن الحفاظ على هذه المهنة العريقة الشاقة التي تضع بين نصفي الرغيف نعمة سابغة.

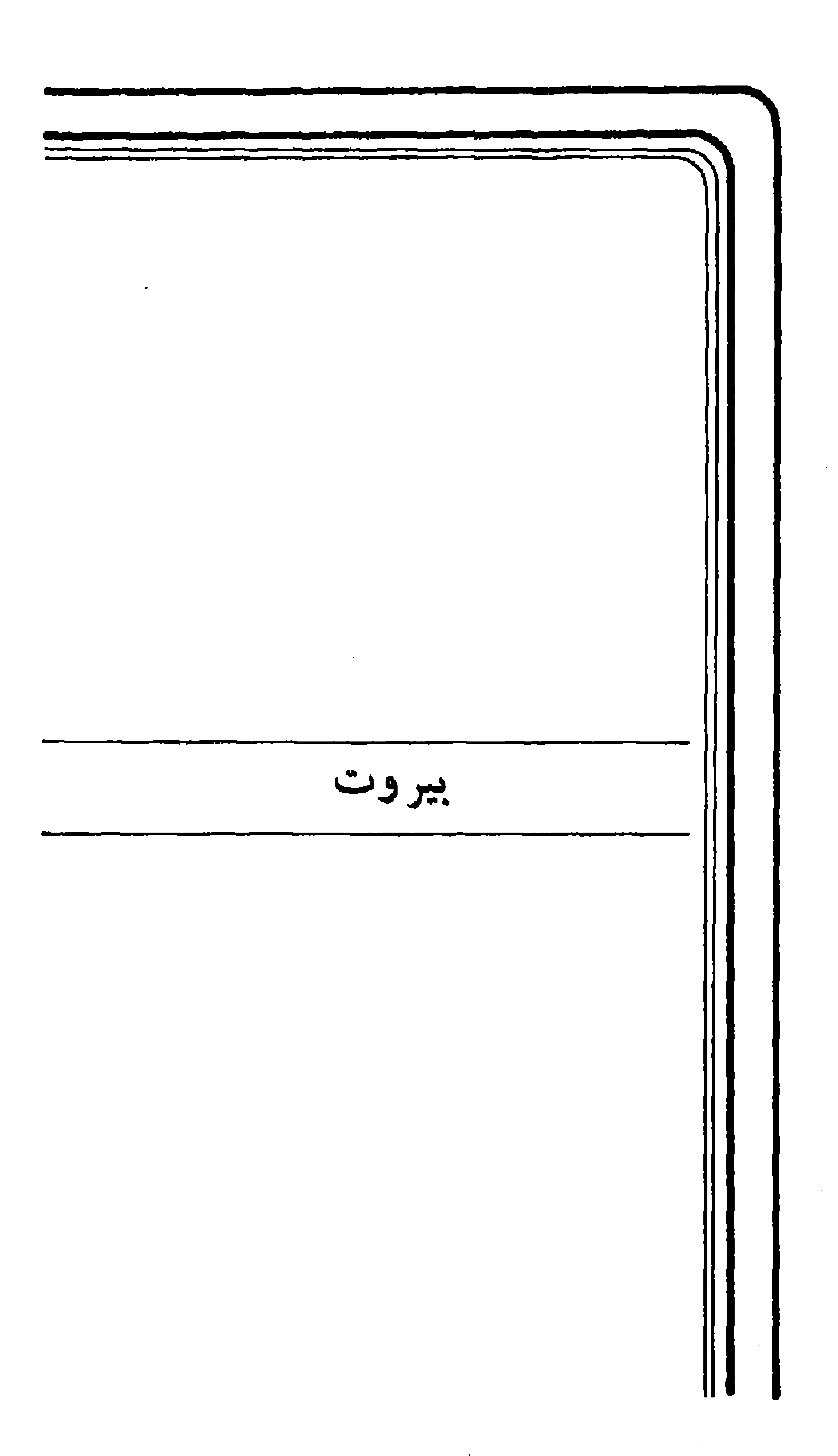
في هذه الأيام لم يعد الصيادون ينشرون شباكهم، ويتلذذون بالقهوة الفاترة في مقر النقابة. ان « صور » الآن مرفأ لصيد آخر.

إذاعات الأعداء وصحافتهم أرادت منذ اليوم الأول للاجتياح ان تغيب « صور » في الذاكرة المتعبة المزدحمة بالمدن الراحلة. لكن « صور » لم ترحل، « صور » لن ترحل.. انها مرفأ صيد مثلما كانت، الا أنه صيد آخر. المقاتلون يمنحون المدينة هويتها الجديدة. وقد جعلوا من شوارعها وأزقتها وبيوتها مصائد للأعداء. « الروح القتالية والمعنويات عالية، ودبابات العدو المدمرة » ما يزال البحر يرسل الى المدينة نسيما رطبا، ورائحة سمك، وملحا خفيفا، ما يزال يرسل الى

المقاتلين هداياه.

ونحن الذين نتحرق في بيروت شوقاً. يرسل إلينا المقاتلون هدايا من « صور »، أنباء الاشتباكات والكمائن وأعداد القتلى وسواهم. . وماذا نرسل نحن لـ « صيادي صور » ؟ ماذا نقول لهم ؟

ليس لدينا الكثير. لكن القليل الذي نملك هو من أجلهم. لا نملك سوى الاصرار. وهو ـ بعد ـ بضعة من إصرارهم هم، ومقبس من نارهم، وفضلة من فضل عميم أسدوه هم. وحين تنتهي المعارك، حين نخرج من المخبأ أو الملجأ، سيكون لدينا الكثير مما نقوله لبعضنا، مما نهديه لبعضنا. ولسوف نمضي معا، في مساء رطب بهيج الى البحر.



بيروت

بيروت لن تكون محاصرة.

الوردة العربية على المتوسط ستظل وردة عربية.

وتحت صواريخ الطائرات وقذائف البوارج تظل هي هي : بيروت التي نحب.

هل شهد أمروء كيف يدفع التاريخ عن نفسه ؟

هل شهد أمروء كيف تدفع أمة عن نفسها ؟ اذن، فليتفرس في ملامح بيروت، آنذاك يشهد المعجزة. ويرى كيف تحولت مدينة، في لمح البصر، الى قلعة.

وبيروت تقاتل. بيروت تعض على الشاطيء بلثة دامية. ومن « عين المريسة » الى « خلدة » تبسط جناحها الحديـدي المخرم بالقذائف والصواريخ.

مقبرة الغزاة هي. وصرخة الشعب العربي. وإنبعاثة الشهيد.

على مدار الساعة

في الحرب نتعلم عادات جديدة. ننام قليلا، نأكل قليلا. ونفعل كثيراً. في الحرب نتعلم أن نحب. وفي النار يظل الجوهر. في النار يتألق الجوهر، وينتفي الوضر والدرن، ويتملك الانسان شوق الى أن يكون أجمل مما كان، وأصفى مما كان، وأكثر حباً.

والمرء لا يتعلم العادات الجديدة إلا في ظروف إستقرار معينة. ونحن الآن في مثل هذه الظروف. إننا، على مدار الساعة، مستقرون.....

فالطيران المعادي يهاجمنا على مدار الساعة.

والحرائق ترتفع على مدار الساعة. والشهداء يتساقطون على مدار الساعة، والمقاتلون يقاتلون على مدار الساعة.

1982/6/28

الفاكهاني بعد الغارة

في صباح الخامس والعشرين من حزيران الماضي قررت أن أزور الفاكهاني، وزرته فعلاً، أكوام من الرمل والتراب سوف تكون سواتر ومتاريس، أكياس من الرمل عالية، وملصقات الشهداء أخذت تتناثر بفعل القصف، مقاتل يقطع الشارع مسرعاً وسلاحه بيده. لم تجد أحداً تعرفه. الوحشة تستولي عليك، وتبدو الشوارع والأمكنة والأبنية صوراً لرواية قرأتها منذ عشرات السنين. يا للعنة !.لم أكن أعرف حين كتبت هذه الكلمات، أن الفاكهاني سيتعرض مساء اليوم نفسه الى أشنع غارة شهدها، وربما كنت « محظوظا » حين لم أجعل موعد زيارتي، ذلك المساء الرهيب.

إلا أني في صباح اليوم التالي، ذهبت أزور المنطقة. في مدخل شارع عفيف الطيبي، سئلت عن هدفي، أبرزت الهوية، متجها نحو المستديرة الصغيرة حيث كان مقهى « أم نبيل » يوماً ما، الدمار شامل، وفي ركن الشارع، لصق مقهى « التوليدو » ذي الحظ السيء، إنهارت العمارة، وهبطت على قاعة « الكرامة » للفن التشكيلي، وانتشر الركام على مساحة واسعة بلغت مدخل جامعة بيروت العربية، وكاد الركام يغلق الشارع الرئيس.

أربعة أو خمسة شبان فقط كانوا هناك. مراسلون أجانب ملتحون مثقلون بأجهزة تصويرهم يعملون مسرعين، الشباب يحذرون

القادمين من الاقتراب أكثر من الركام، امرأة عجوز محتقنة الوجه تسألني، مشيرة الى بقايا البناية : هل يسمحون لي بدخول بيتي ؟ أجبتها : تكلمي مع الشباب. بينما كنت أسأل نفسي : أي بيت تعني ؟

والتقي بمقاتل أعرفه، لقد إسترسل شعر رأسه ولحيته، قال : قضينا الوقت في الملجأ، إنفجرت قذيفتان قربنا، واندفع حريق في طابقين فوقنا. كان يتحدث عن مبنى آخر. سألته : كم صاروخاً أطلقوا على هذه البناية ؟

أجاب : ثمانية صواريخ.

ثم همس : من أطلق النسور على لحم الفتاة الوديعة ؟ صداع حاد يرهقني، كانت عيناي تغيمان، رجوته أن نقف في الظل. تحدثنا قليلاً لم يكن لدينا ما نقول، أما أنا فكنت مختنقا بالنشيج.

نهار الأحد

الطائرة ـ العدو تجيء، في يوم الأحد هذا
الطائرة ـ العدو تطلق صواريخها.
لكنها هذه المرة، آلاف الصواريخ من طائرة واحدة.
في « الفاكهاني » رأيت بناية دمرتها ثمانية صواريخ.

يوم الأحد هذا، كان نهارا رائعا. صباحا للندى على الشجر وللخفقة في القلب، البحر قريب. وعشرات الالاف من اهالي بيروت ظامئون الى هذا البحر المحاصر بالبوارج والقذائف، ظامئون الى سلطان ابراهيم وكأس العرق في مقهى او مطعم على البحر. الاسرائيليون قذرون، بخلاء. منتنون من رائحة الشيرج. قتلة. تافهون. « مستعمرون » جائعون. الاسرائيليون يريدون ان يغلقوا على الشعب اللبناني نوافذ حياته ومنافذها. لأن الشعب اللبناني متحضر، بارع، متمكن، ذكي . . . ولأنه بعد هذا كله، او قبل هذا كله، شعب مقاتل، شعب يحب السلاح، ويحب ان يستخدمه دفاعا عما يحب، ولأن الشعب اللبناني، في هذا كله، شعب عربي جميل ايضا.

يوم الأحد هذا، كان نهارا رائعا.
الأشجار القريبة من الشرفة « تفتضح » الوانها، خضرة صيفية في

النهار، تشوبها صفرة خفيفة. كانت الأشجار داكنة الخضرة في المساء.

لم تأت الوردة التي احب. لا بأس. انها الحياة.

مشاغل الأحد كثيرة، بالرغم من الوقت القاسي.

وعليّ.. في هذا الأحد ان اكتب مقالتي الأسبوعية لمجلة «الحرية»، وصورتي الناطقة لصحيفة «النداء»..

يوم الأحد هذا، كان نهارا رائعا..

في حوالي الساعة الثانية، اقتربت من الشرفة. كنت ثملا قليلا، قليلا جدا. وفي هذه الساعة، مرقت الطائرة، مخلفة وراءها الحقد، والصوت الذي نكره.. وأسراب حمام مذعور.

في هذه الساعة ايضا.. اطلقت صواريخها: آلافا بل عشرات الالاف من الأوراق التي تلتمع في سماء الصيف الصافية، مثل رقائق من معدن ملونة، ذهبا وفضة.. في مهرجان بريق.

لكننا نعرف العدو.

قلت اولا: انهم يرسلون لعبا مسمومة للأطفال.

قلت ثانيا: انهم يقذفون اكياسا من غاز قاتل تنفجر حين تلامس الأرض.

وقلت ثالثا: انهم يرسلون منشورات تدعو الى الاستسلام.

لا فرق..

اللعب المسمومة، وأكياس الغاز القاتل، ومنشورات الاستسلام:

سلاح واحد.

والنتيجة واحدة: القتل.

والهدف واحد: الشعبان اللبناني والفلسطيني.

يوم الأحد هذا، كان نهارا رائعا.

كتبت مقالتي الأسبوعية لمجلة «الحرية» و«الصورة الناطقة»

لصحيفة « النداء » والوردة التي احب لم تأت. والطائرة الاسرائيلية لم تسقط منشورا لها فوق شرفتي. والشجرات قرب الشرفة يتألقن في خضرة عارية. والفتيات في الشارع يزددن حرية مع الصيف.

1982/6/29

حياة يومية

بين توقع القصف، والقصف، يحيا « الفاكهاني » حياته العجيبة مثل اسطورة، وينهض، مثل كائن خرافي، على قدمين من حجر، ويمتد متطاولا، متلعا رأسه الذي تتخطفه النيران والبروق والأدخنة.

لم يعد الصباح الباكر، مثلما كان، بهيا في وجوه التلاميذ، وألوان الفواكه، وفي مذاق القهوة الأولى. انه الآن صباح حجري. صلد. صباح متمكن. لا احد تقول له صباح الخير. لكن مقاتلا ملتحيا يفجؤك من حيث لا تدري بتحية الصباح. يسألك عن احوالك وعن الأحوال. ويبتسم لأنه رآك هذه الساعة في هذا المكان. وتكتشف، في غرابة البداهة، ان « الفاكهاني » ما يزال ينبض بتلك الطاقة النادرة المكتنزة.. طاقة مقاتل فتي.

« الفاكهاني » بلا ماء ولا كهرباء، أمس دمر القصف « صيدلية العائلة »، وكلية الهندسة. اليوم أطاحت الصواريخ الأميركية بمبنى الخدمات الطبية. الجرحى يملأون المستشفيات.. وفي مستشفى الناصرة تهشمت الحاضنات الزجاجية للأطفال حديثي الولادة، بسبب ضغط الانفجارات.

في نيسان 1981، كنت في الفاكهاني أيضاً، يومها، تعرضنا لقصف مدفعي عشوائي من المنطقة الشرقية، واضطررنا أحيانا الى ملازمة الملجأ. حتى المقاهي والمشارب ظلت مفتوحة وراء متاريس

عالية من الأكياس الرملية.

غير ان للطيران المعادي شأناً آخر. انه منظومة كاملة من الفعل والأثر ينبغي ان تجابه بمنظومة مقابلة من اجراءات متكاملة تؤدي في مجموعها الى تكييف الحياة وعوائدها حسب ما تقتضيه الضرورة. ان دولا كبيرة قد لا تستطيع ان تهيء هذه المنظومة المقابلة، فكيف بنا نحن ؟

يهبط الليل وئيدا على بيروت الغربية، ومع هبوط الشمس المتأني في البحر تتشكل تدريجا اسطورة « الفاكهاني » الليلية، الظلام مطبق. والصمت عميم. هدير انفجارات قريبة أو بعيدة. والأسماء تتخاطف : خلدة. الدامور. الأوزاعي. الزهراء. الدوحة. الناعمة. وأنت تواصل سراك في دروبه وأزقته. قبل ايام كانت أبواب تفتح اذا طرقت في المساء. اما الليلة فالأبواب مغلقة على حجرات خالية. لقد غادر الساكنون. وتواصل سراك. ذهول مكثف. والظلام مطبق. والصمت عميم. فجأة البصيص النحيل من مصباح بطارية : من ؟

« الفاكهاني » يقاتل.

الدامور

شجرة تين أتلمس أوراقها الندية الخشنة في الصباح البحري. سلالم وصخور. . ودير يهدم. وفي المساء المبكر ساحة صغيرة وفتيان يغنون. ناد متواضع للشبيبة. وأمسية شعر. ممدوح عدوان وتل الزعتر وعز الدين المناصرة. . مواضع مدفعية قديمة. هنا استشهد فلان. وهناك سقط الصاروخ. وفتى يذكرني : أمضي الى حجر على الدامور.

اذن، ما نزال قادرين على استلال الذكرى المشرفة.

لكن للدامور هذه الأيام نكهتها المستجدة. خمسة آلاف طن من القذائف والصواريخ الأميركية سقطت على أحجارها. . وعلى هذه الأحجار ايضا سقط الجنرال يكوتئيل ادام احد قادة الغزو الصهيوني والنائب السابق لرئيس اركان الجيش الصهيوني. وعدد من اركان قيادته بينهم العقيد حاييم سيلع مساعد ادام وقائد الهجوم على الدامور. . . . وكاد رئيس الأركان ايتان نفسه يسقط على هذه الأحجار أيضاً.

شجرة تين. دليل بحري يوشوشني. وفتحة كانت نافذة يوما ما. وسلالم ضيقة تكاد لا تنتهي بعد ليل ممطر. . وتؤ أمان مغمضا العيون، كالقطط الصغيرة باركتها في مساء شتوي.

اذن، ما نزال قادرين على استلال الذكرى ؟

الدامور. . الى اين يمضي الشباب ؟ انهم يمضون الى هناك، يتمترسون بالصخور، يدرعون عنفوان الثورة، ويتشبثون ببنادقها.

مجموعة مقاتلة من الشعراء الشباب. نفضوا عن عيونهم وسن الهدأة ورسنها، ارتدوا بزة المقاتل، وعادوا الى بنادقهم، منطلقين الى الدامور. . . الى الحجر وشجرة التين. وارتادوا كالوعول تلك المراقي الصعبة.

الخروج مِن النفق

مساء أمس زرت الموقع الجديد.

ان المواقع أخذت تكتسب، تدريجياً، الطابع العسكري المنظم، طابع الوحدة المتمركزة. وهنا في هذا الموقع ذي الأهمية الاستراتيجية للدفاع عن بيروت أكثر من مظهر للانضباط المرجو.

لاحظت أولا أواني الطعام المعدنية وهي تلمع، نظيفة في الشمس المسائية، مرتبة بعناية فائقة، تذكر بوحدات الجيوش النظامية.

لاحظت ان المسلحين لا يظهرون خارج المبنى. حارس وحيد فقط ذو ملابس مدنية كان يؤدي نوبته عند المدخل.

عند جهاز الاتصال، شابان مستغرقان في لعبة شطرنج. قلت لهما: جميل ان تلعبا الشطرنج في هذه الأيام، انه لدليل على ارتفاع المعنويات وهدوء الأعصاب.

انتقلت الى ممر طويل. في اول الممر طاولة صغيرة، عليها شمعة متقدة، وزهرات قرنفل في قنينة « صحة » مقطوعة عند المنتصف، وثمة « صوفا » صالحة للجلوس. بعد ثلاث خطوات تمتد مهاجع الشباب، مرتبة نظيفة. ليس في الممر الا السلاح الشخصي. الأسلحة الأخرى والقذائف في مكان آخر أكثر ملاءمة.

جاء أحد الشباب بقيثارة، يقترب، والليل طويل، وللقيثارة

مكانتها في هذا الليل.

الشباب يجتمعون، واحدا بعد آخر، ليشكلوا حلقة صغيرة تتوسطها الشمعة الوحيدة. قال احدهم : كنا ننتظر زيارتك منذ زمن. نحن نتابع زاويتك.

فناجين القهوة تجيء، وتشتعل معها السجائر. أحد الشباب ينظر الى ساعته، يقول : الواجب. ويخرج من هذه الحلقة الصغيرة في الممر الطويل، متجها الى السلم الهابط.

الحديث يدور، بلا زيادات أو أوهام.

يقول الشباب، نحن نستعد لحرب عصابات. لسنا بحاجة الى كثافة في العناصر. خذ مثلا «الآر. بي. جي» لو أصابت قذيفة واحدة فقط من القذائف الخمس، دبابة اسرائيلية... لاستطعنا أن ندمر خمسمائة دبابة ونقتل من فيها من عناصر.

وأسأل . وماذا عن صمت الأمة ؟

يجيب احد الشباب : نحن صوت الأمة. نحن الأمة. وفي هذه اللحظات الحرجة من التاريخ استطعنا، نحن، ان نحفظ للأمة شرفها وصوتها . اننا نكتب الآن، في هذا الموقع، والمواقع الأخرى، مفصلا هاماً من مفاصل التاريخ.

●

الحديث يدور مكثفاً، والعتمة تزداد كثافة.

ودّعت الرفاق، وهبطت السلم، متجها الى طريق فرعي.

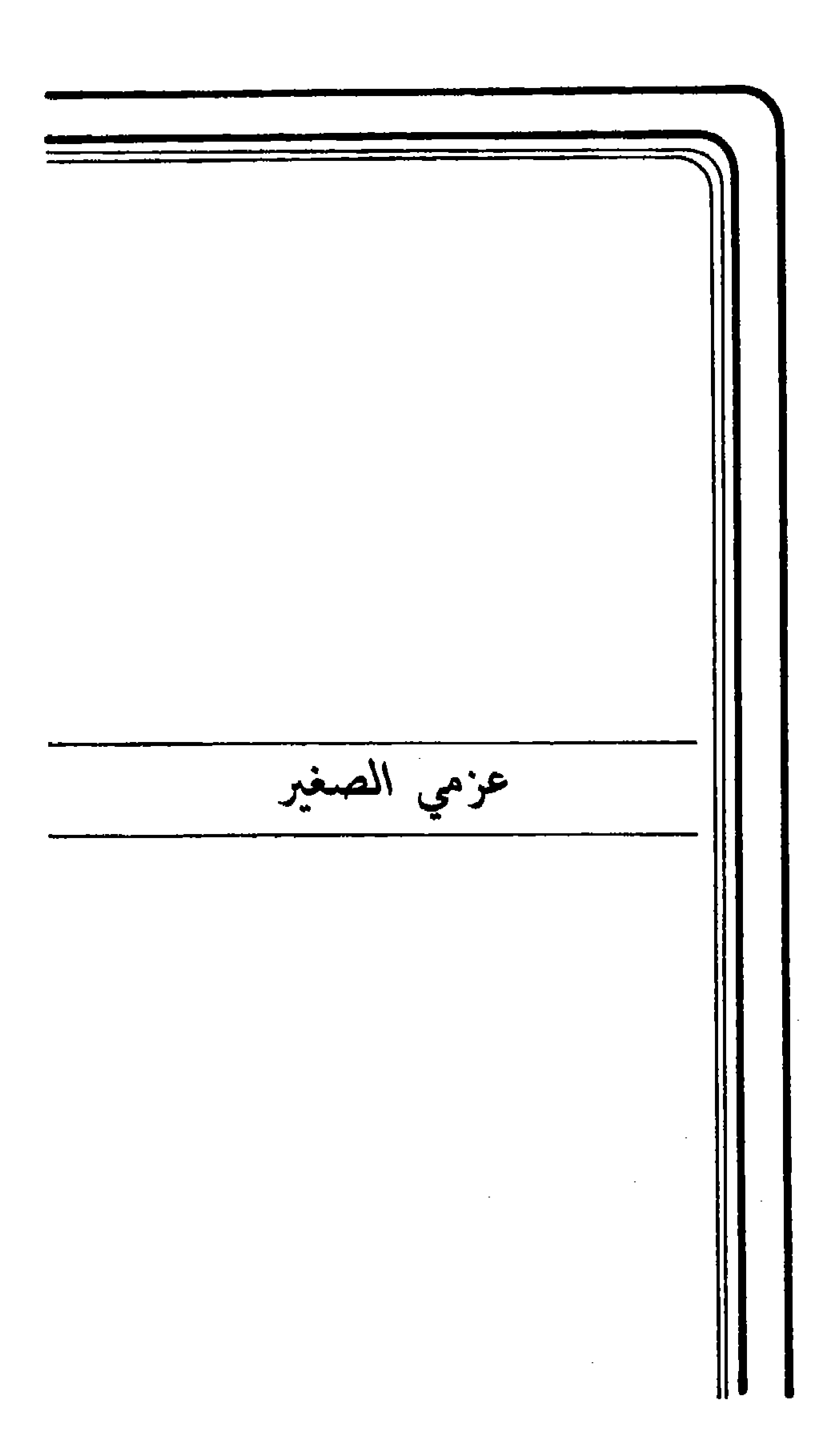
كنت أفكر بهؤلاء الشباب والفتيان، كيف نضجوا مبكراً هكذا، كيف امتلكوا دربة السلاح العالية، والانضباط الجميل، واستطاعوا ان يرتقوا بوعيهم الى هذا الحد.. كيف ادركوا، بهذا الوضوح أنهم ضمير الأمة، ووقدتها، وأنهم الذائدون عن إسمها، المدافعون عن

هويتها وتاريخها . .

●

في ممرات كهذا، في مواقع كهذا. . يبدأ الخروج من النفق.

1982/6/30



عزمي الصغير

ولدت أسطورة « عزمي الصغير» بين أهل « صور » كما تولد الأساطير عادة : أشياء من الواقع تصادف هوى في نفوس الناس، ثم تتجمع حولها، مثل كرة الثلج، وقائع جديدة وأحلام ومعتقدات وتفاصيل، لتكون في النهاية جسد الأسطورة وهالتها. وإن كانت صور القديمة قد صنعت أساطيرها، فإن الأسطورة الجديدة لصور، قام بنسجها ضمير المدينة وعزمي الصغير نفسه، في تداخل آسر.

أتذكر يوم زرنا صور، في مهرجان « الشقيف » الشعري. لقد سبقنا المجموعة، وكان لنا ان نزور « مقر » عزمي الصغير. الغرفة صغيرة، شبه عارية، تبعد قليلا عن أقرب ضواحي المدينة. الطريق قربها مليء بالعثرات والحفر. الحراسة عادية جدا. كان في الغرفة عدد من الشباب. أكبرهم سناً شرع يتحدث معنا. جاء الشاي واستمر معه الحديث. دخل رجل متوسط القامة، تسبقه عصاه، وهي عصا غير مشذبة، ربما كانت قد كسرت للتو من شجرة ليمون أو برتقال، ونظفت على عجل من الأوراق والفروع الصغيرة. حيانا، دار الى زاوية الطاولة الخشنة، ثم اتخذ مجلسه الى جانب منها. قال أحد الشباب : عزمي الصغير. في هذه الأثناء كان مكبر الصوت يذيع أغانٍ ثورية. نظر عزمي الصغير الى ساعته، وقال : إغلقوا مكبر الصوت، بعد قليل يرفع آذان الظهر، علينا أن نحترم الناس.

ثم توجه إلينا بالحديث قائلا : انا لا أفهم كثيراً في تفاصيل كتاباتكم، لكني أستطيع القول إنني افهم ما يريده المقاتلون.

ألا يحق لهؤلاء المقاتلين أن ينالوا جانباً من إهتمامكم ؟

واستمر الحديث مرحا، خفيفاً، بينها كانت الغرفة الصغيرة تضج بالضحكات.

أخيراً قال : آه لو تعلمون كم مرة استهدف القصف هذه الغرفة ! الأمسية الشعرية التي أقمناها في ناد مكتظ ، حضرها الرجل ومقاتلوه.

وأشهد انه كان شديد التحسس لما يلقى، عارفاً بما يخفيه التلميح من تصريح، منتبهاً الى القذيفة وهي تقصد هدفها البعيد. . وحين انتهت الأمسية كان إلتفاف الناس حول عزمي الصغير أكثر من التفافهم حولنا، نحن شعراء الأمسية. كان محاطاً بالناس، صغاراً وكباراً، عصاه الطريفة تسبقه، وعلى وجهه الابتسامة الصعبة.

●

وعزمي الصغير في بساتين صور. مقره كان هناك ومنزله. شعبه ومقاتلوه، والأشجار التي وهبته عصاه، وأخفت مدافعه، وأطعمت بعصير الأرض عروق فدائييه.

●

والأسطورة تتغلغل الآن في الهواء السري. الاتصال الأخير لعزمي الصغير. الأسرى. ومكبرات الصوت الاسرائيلية التي تحاول، عبثاً، أن تنال من الأسطورة.

أي بستان تنحني أشجاره اليوم على عزمي الصغير ؟ أي أغانٍ خفية

تهمس بها المدينة العريقة عنه.. وأي أسطورة تتغنى!

●

لن يمر وقت طويل حتى نعرف التفاصيل. ولكن، بعيداً عن التفاصيل، بعيداً عن إنضباط التقرير العسكري، بعيداً عن كل شيء.. رأينا كيف تكاملت أسطورة لشعب مكافح.

1982/7/1

بانتظار البرابرة

قصيدة كونستانتين كافا في « بانتظار البرابرة » تقدم دراسة جيدة للهواء الذي يتنفسه أناس معينون في حالة مثل حالتنا.

ثمة مدينة ينتظر أهلها دخول جيش غزاة، جيش بربري قد يدخل مدينة أغريقية، والناس في حالة هياج. لا يعرفون ما يفعلون. حاكم المدينة والقناصل والقضاة يرتدون أبهى ثيابهم، ويعدون أبلغ خطبهم لاستقبال البرابرة، والترحيب بهم في المدينة. العيون زائغة، والأعصاب مرهقة. فجأة يأتي من يخبر أهل المدينة بأن البرابرة لن يأتوا، أو ان حكايتهم ذاتها ملفقة أساساً. تصاب المدينة بالذهول، وربما تساءل حاكم المدينة والقناصل والقضاة: ولكن.. ماذا نفعل بلا برابرة؟

●

في بيروت هذه الأيام، يجلس أناس أيضاً في منازلهم، عملهم الوحيد: إنتظار البرابرة.. وربما كانت الكثرة الكاثرة من هؤلاء متطلعة الى نهاية او بداية، ترى فيهما دعة عيش وراحة بال، و« خلاصاً » من زمن مطوط، دون أن يعني هذا، بأي حال، موقفاً الى جانب البرابرة الماثلين على الأبواب. كأن هؤلاء الناس يقولون:

فليأتوا . . ماذا بمقدورهم أن يفعلوا ؟

●

لكن هناك فعلاً آخرين، تربطهم صلة نسب بمن تحدث عنهم كافافي : حاكم المدينة والقناصل والقضاة الذين يرتدون أبهى ثيابهم، ويعدون أبلغ خطبهم لاستقبال البرابرة.

●

غير أن بيروت ليست تلك المدينة أو المستوطنة الأغريقية التي إستهوت كافافي. انها مدينة عربية مقاتلة. والذين ينتظرون البرابرة على أبواب المدينة ليسوا الحاكم والقناصل والقضاة. انهم المقاتلون لبنانيين وفلسطينيين. المقاتلون الذين حولوا شوارع المدينة وشواطئها الى شرايين تظل تمنح قلب المدينة صمودها المجيد، وتغذي أهلها بنسغ الارادة القاهرة.

●

لن تجد أحداً زائغ البصر في الشارع. لن تجد حالة هياج. ثمة إستعداد مكتوم متكتم لقهر البرابرة.

ثم ان البرابرة الواقفين على أبواب بيروت، ليسوا برابرة كافافي غير المرئيين الذين سرعان ما تبددوا في فقاعة الشائعة. البرابرة الواقفون على ابواب بيروت يعلنون عن أنفسهم كثيراً، بطائرات الليل، والبوارج، ومدافع الدبابات، والاذاعات. . وهم لهذا محسوسون ملموسون، أهداف واضحة لأسلحة المقاتلين، واضحة حتى للعيون الزائغة قليلا !

●

بدلا من « إنتظار البرابرة »، أو مع هذه القصيدة، يحلو لي هذه الأيام أن أقرأ قصيدة أخرى لكافافي، هي « ثرومبيلي ».. الممر العسكري الذي طالما قهر الأغريق أعداءهم فيه، بالصمود والتضحية....

1982/7/3



مواصلة حياة

اليوم، الرابع من تموز، عاد الاسرائيليون يقصفون، من جديد، « حي السلم »، بالضاحية الجنوبية.

واليوم. الرابع من تموز. عيد الاستقلال الأميركي.

الأميركيون يحتفلون بالعيد على الطريقة الريغانية، وتحاول طليعتهم العسكرية الصهيونية التقدم أمتاراً باتجاه « حي السلم ».

ما الذي جاء بالأميركيين الى هذا الحي الوديع من ضواحي بيروت؟ ألم تكفهم قارة كاملة. أبادوا شعبها. وأقاموا فيها صروحهم، كي يجيئوا ببوارجهم وطائراتهم ودباباتهم. محاولين التسلل. ليلة عيدهم، الى هذه البيوت الخفيضة الصغيرة ذات الشجر؟

الناس في « حي السلم » يتكلمون لغة اخرى لن يفهمها هؤلاء حتى بترجمان. لغة بسيطة. مثل حدائق البيوت وبساتين الخضار. الناس في « حي السلم » يريدون فقط ان يظلوا احرارا. يعملون ويزرعون. يعبدون الههم. ويقرأون الصحيفة التي يختارونها. ويمضون يوم الأحد في البرية. أو الجبل، أو شاطىء البحر. وللناس في « حي السلم » ثوابتهم: هم يرون الصهيونية عدوا، وريغان كلباً مسعوراً، ولبنان وطناً حراً سيداً. والعروبة دماً في العروق.

والناس في حي « السلم » وديعون. مسالمون. لكنهم يحبون حيهم وبيوتهم مثلما يحبون لبنان، وهم متشبثون ببيوتهم وحدائقهم الصغيرة ودروبهم الضيقة. لم يغادروها ولن يغادروها، ولهذا يحملون السلاح. ويحفرون الخنادق، ويقف شبابهم، ليل نهار، مستعدا، يراقب الأمتار القليلة التي تفصل بينه وبين دبابات العدو، ويده على الزناد.

كم جاءت الطائرات، وهدرت مدافع الدبابات، وغير بعيد عن الحي، في « الحدث » وكلية العلوم. تتمترس قناصة الأعداء و(حي السلم) صامد وأهله مقيمون، وبساتينه تزداد خضرة، وأشجاره تلتف على نوافذ مفتوحة.

مرة زرت الحي في واحد من ايقافات اطلاق النار العديدة. سألوني ما الذي جاء بك في هذا اليوم بالذات ؟ الا تعرف ان يوما كهذا هو من اخطر الأيام عادة ؟

فجأة جاءت الطائرات. مزمجرة، بشعة، منطلقة بقنابلها وصواريخها نحو الجبل.. وتعالت الانفجارات.

وفي الملجأ، الملجأ البسيط الذي دخلناه، كان « حي السلم » يواصل حياته وعناده المستميت.

1982/7/4

تنهض الروح

كان مقرراً أن تقيم منى السعودي معرضاً لمنحوتاتها بين السابع والحادي والعشرين من شهر حزيران الماضي، في حديقة بيتها العتيق، لكن الطائرات الاسرائيلية المزمجرة عبر سماء بيروت ألجأت النحاتة الفلسطينية الى غرفة بداخل المنزل، بينما ظلت التماثيل نابتة على أرض الحديقة كأنها تحاول أن تمد لها جذوراً لا تقتلع في هذا الزمن المضطرب.

أحجار منى السعودي، القادمة من فلسطين وأرمينيا وبعلبك، لا تتمدد على الأرض. بل تمتد في الفضاء، الفضاء الذي خلقته هي، هالة لا متناهية تنطلق من هذه النعومة المصقولة المكتنزة بالروح.

« مقام الحجر » يقول دليل المعرض. و« مقام الروح » أقول. أن بين الحجر والروح ما بين الحجر والنار. وثمة نار باردة في هذه المنحوتات الناهضة المتناثرة مثل شارات عالم غريب آت، في الحديقة الصغيرة ذات الشجر الملتف والزهرة الاستوائية.

الطائرات الاسرائيلية التي تمرق مزمجرة عبر سماء بيروت، والتي منعت منى السعودي من إقامة معرضها، لن تمنع بالتأكيد، دفقة الروح الهائلة في الحجر القادم من فلسطين. لن تمنع بالتأكيد إستحالة الحجر جسداً. لن تدخل بالتأكيد هذا الفضاء اللامتناهي الذي خلقته الأنامل.

الضوء يشحب في الغرفة.

وفي الحديقة يتلبث نور ما قبل المساء.

ويدور الحجر القادم من فلسطين وأرمينيا وبعلبك دورة اللا نهاية،

وتنهض الروح.

سلالة

صباح الثاني عشر من تموز الشرفة البحرية هادئة، والأغصان العليا من شجرة قريبة تتطاول الى سماء صافية، وتمنح زرقة البحر القريب شيئا من طعم الأرض وبهجة تأمل كاد المرء يفتقده منذ الرابع من حزيران.

وأمس، أمس فقط، الحادي عشر من تموز، كان العالم متفقا على مراقبة المشهد، متفقا على البقاء مراقبا، ومتفقا على أن المخاليق الذين تعرضوا، طيلة ست عشرة ساعة متواصلة، لسبعين ألف قذيفة إسرائيلية ـ ليسوا بالبشر السوي. أنهم سلالة « فائضة ». قوم ما زالوا مهووسين بـ « كلمات »، مثل : الوطن. الحرية. الأرض، الى حد انهم يحملون السلاح في سبيل هذه الكلمات، ويتحملون من أجلها هذا الجحيم الرؤ يوي في مدينة اسمها بيروت.. بينما كان بمقدورهم، لو أنهم عقلوا. أن يمضوا يوم أحد ممتعا. بعيدا عن الكلمات الكبيرة والسلاح، والحق أننا لسنا بالبشر السوي في ضوء هذه المفارقة لسبب بسيط جدا، هو اننا نريد ان تتحقق كلماتنا « البسيطة » على أرض الواقع. الناس الذين يقاتلون في بيروت. والذين يصبرون في بيوتها المهددة المهدمة، أرادوا ان يمنحوا كلمة « الوطن » معناها. فالوطن المستباح المحتل، الذي يدنس العدو ثراه، ويقتل أبناءه، ويستحيي نساءه، ويطبق عليه بهذه الغمة السوداء ـ لن يعود وطنا إن لم يقاتل أهله دفاعا عنه، وتحريرا له. وإيمانا به.

وهذا ما يفعله المقاتلون والصامدون والصابرون في بيروت، وفي لبنان، من أجل لبنان الأبهى، الحر، السيد، لبنان الوطن.

والذين يقاتلون ويصمدون ويصبرون أرادوا أن يمنحوا كلمة « الأرض » معناها، فللأرض الفلسطينية، من القنطرة الى القنيطرة، شميمها الذي يوحد ملايين الداخل والشتات، في صبوة عظمى قل أن وجدنا لها مثيلا في تاريخنا المعاصر، وهو شميم لم يستروحه الفلسطينيون الا مضرجا بالدم، والا زكيا نقيا صافيا، من فوهات بنادقهم فقط. هذه السلالة « الفائضة » ستظل تحمل الى العالم كله، وفي أقسى الظروف، وأشدها شظفا، التحدي الكبير، والروح المقاتلة، والنذير والبشير، ستظل تحمل الى العالم كله تراب الأرض المقدسة، حتى لو ضاقت المساحة ضيقها. . حتى لو تعرضت بيروت، خلال ست عشرة ساعة متواصلة. لسبعين ألف قذيفة من مدافع العدو وبوارجه.

1982/7/12

الصليب أميركياً

كنت عند « البربير ».

وفي كورنيش المزرعة الموحش، آثار مما خلف القصف، زجاج هشيم يغطي اجزاء من الطريق، وحفر، ومبان إخترقت القذائف نوافذها وجدرانها وشرفاتها. الصباح قاس. والمزابل ترتفع. ثمة صحافي أجنبي يصور « بإنهماك عجيب » احدى هذه المزابل، بينما وقف أربعة أشخاص أو خمسة، متفرجين.

فجأة رأيت أمراً عجباً... ها هو ذا القسيس الأميركي، إذن. حامل الصليب في بيروت الحرب، ومعه ولده..

كانا يسيران مسرعين يريدان ان يتجاوزا البربير. وبدأ الأثنان تماما مثلما نشرت صورتهما في الصحف. سوى أنهما متعافيان جدا، نشيطان اكثر مما ينبغي. يحملان صليبيهما كأنهما يحملان قشتين.

انه لأمر عجب!

الخشب الذي صنع منه الصليب، يبدو متينا، بل شديد المتانة، مصفحا، مضلعا، كذلك الخشب الذي يستخدم في عوارض السفن القديمة ذوات الأشرعة المتعددة.

إذن، كيف بمقدور القسيس الأميركي وولده أن ينطلقا تحت صليبيهما بهذه السرعة القياسية؟

تجاوزني الأثنان، لا يلويان على شيء، وهما يقتربان من مستشفى البربير. ولست أدري كيف عنت مني إلتفاتة أخيرة متفحصة كي أدرك السر في القصة كلها. كان في أسفل كل صليب عجلة دوارة، صليب الأب الكبير ذو عجلة كبيرة، مقارنة، وصليب الابن الصغير ذو عجلة صغيرة. اذن، الأمر هكذا.. ويا لحمل الصلبان الأميركية من مباراة مدهشة!

حين إكتشفت مسألة العجلات، راودتني فكرة أخرى متصلة بسابقتها: ماذا لو كان الصليبان ذاتهما من الورق. الورق المقوى، الصبيغ كهيأة الصليب؟

وتذكرت صورة قديمة لحامل صليب اميركي قرب جدار برلين.

في الموقع

يحار المرء في هذه الأيام الضيقة. فالمدينة اتكأت على نفسها، متحملة، حضنت شوارعها وأبنيتها، وظلت بعينيها المسهدتين ترقب الأفق المكفهر، المسافات قصرت لكنها أمست أشد صعوبة، والأصدقاء تفرقوا، غادروا منازلهم ومظانهم. . وأنت تحار في امرك. . الى اين تمضي ؟ ظهر احد الأيام قررت ان اكون في موقع، صحبني زميل لي، يحمل رشاشه بعد طول هجر : قال لقد تطوعنا، فوضعونا في هذا الموقع، مضيت معه. الظهيرة قائظة، وفي ملابسنا رائحة عرق وتراب لقلة الاستحمام. كانت نوبة حراسته قد بدأت، فخرجت معه. تحصنا تحت سلم. فجأة بدأ القصف. سقطت قذيفة في مكان غير بعيد. جاءنا من يقول لنا : ادخلوا المخبأ. في هذا الوقت تماما إندفع اثنان من قاذفي الـ « آر. بي. جي » وأرادا الصعود الى السطح، اذ سمعا صوت طائرة تقترب. صاح بهما المسؤول العسكري : الى أين ؟ أتظنان ان باستطاعتكما إسقاط طائرة بالـ « آر. بي. جي » ؟ ستكونان أسهل هدف وأنتما على السطح، ثم ان مجرد اطلاقكما النار من سطح البناية سيكشفها للعدو، وربما ارسل طائرتين او ثلاثا لهدمها على رؤوسنا جميعا، كما فعل في بنايات أخرى. دخلنا الملجأ، كانت العتمة شاملة. أو قدنا شمعة وتحسسنا طريقنا، عدد من المقاتلين يتمددون على أفرشتهم. الأسلحة مسندة بطريقة نظامية. صناديق

العتاد والقنابل اليدوية والقذائف موضوعة في ركن امين. وأحد الرفاق ممسك بجهاز اللاسلكي. كنت الوحيد الذي يرتدي الزي المدني، لذا نظروا الي نظرة استغراب تشي بإرتياب خفيف أو إستخفاف ما. الهواء ثقيل في الملجأ، والشمعة لا تبدد الكثير من العتمة الشاملة. الوجوه القريبة منها فقط ذات ملامح واضحة. أمضيت الليل ساهرا. كانت نوبات الحراسة تتوالى في انتظام جيد. وجهاز اللاسلكي يؤمن إتصالا مستمرا على مدار الساعة. دخل احد الشباب : ألا يمكن الاستغناء عن فراش واحد ؟ ان المهجرين بحاجة الى فراش.

أحاديث الليل طويلة. أكثرها عن السلاح. عن مزايا هذا السلاح او ذاك. عن دورات التدريب. عن تطوير قاذف معين. عن اسلحة الليل وأسلحة النهار. أحيانا يدخل حديث السياسة دخولا سريعا. المقاتلون لا يهوون حديث السياسة.

في الصباح غادرت، مثلما جئت، بلا تكلف وداع، فمن يدري . . لعلي واجد نفسي، ثانية، مع هؤلاء الشباب، في هذا الموقع أو سواه.

تكييف النفس

كم تبدو الحياة اليومية الأليفة بعيدة هذه الأيام! ان قدحا من الماء، أو فنجانا من القهوة يبدوان شيئين عجيبين، قادمين من عالم آخر، عالم منسي، ناء، عالم لن نناله ثانية. ومع مرور الأسابيع يكتشف الانسان ان حاجاته قليلة جدا الى حد مذهل، وانه يدخل شيئا فشيئا بحبوحة التقشف الجميل حيث تغني كسرة الخبز عن قطعة اللحم، وحيث يستغني عن كل ما كان يظنه ضروريا في غابر الأزمان.

لكن للكاتب شأنا آخر.

فالقراءة مثلا لازمة للكتابة. ومناقشة الأصدقاء لا غنى عنها. وتوطين النفس على الورقة والقلم دربة يومية لا بد منها.

هذه العوامل الثلاثة : القراءة والمناقشة وتوطين النفس، أمامها عقبات كثار. أولاها الخطر الداهم، وما يثيره من قلق. والكاتب يخوض نضالا حقيقيا حين يمارس الكتابة الآن. وهو لن يكسب هدوءه الخلاق الا بعد خروجه منتصرا من هذه العملية النضالية : تكييف النفس.

وأعتقد أن كثيرين خرجوا منتصرين، أو كادوا. . . . .

الطريق والماء والمتاهة

« من سلك الطريق الواضح ورد
الماء ، ومن خالف وقع في التيه ».

علي بن أبي طالب

في هذا الشهر العصيب، تعلم أناس في السياسة ما لم يتعلموه طوال حياة كاملة. ليس لأن هذا الشهر خير من ألف شهر. بل ربما لأن هذا الشهر شر من ألف شهر. تنزلت القنابل والصواريخ فيه، باذن « الرب » الأميركي، كما لم تتنزل في أي حرب « محدودة » « اقليمية »، او (صغيرة) ونزلت فيه على عاصمة عربية كوارث لم تشهدها عاصمة اخرى في الوطن، وتنازلت فيه أطروحة الثورة العالمية كما لم تتنازل يوما، بحيث لم يعد الذين أقاموا مشروع حياتهم على أساسها يعرفون ما يفعلون أو ما يقولون في الأقل. كان للأيام الأولى ذهول المفاجأة.

لكن الأيام حين أخذت تجرجر أقدامها العارية المدماة على عثار الطريق، هبط عليها ذهول آخر أشد مضاضة. هو ذهول الأمر الواقع، الذي ضاقت فيه الساحة، وأستحكم الوقت، وقيست المناورة والمداورة لا بالمتر الواحد، بل بالمليمتر الواحد. وكنا بين التضامن المنمّق ودعوة توحيد الصف العربي. والاجراءات الهلالية ـ

الصليبية « اقصد الهلال الأحمر والصليب الأحمر » ـ كنا نبحث عن تلك الراية « الحمراء » فلا نجدها الا في كتب لم يعد بمقدورنا ان نقرأها ثانية تحت القصف، والا في شرايينا المنتفخة تحرقا حد الانفجار.

لم نكن لنريد ان نستيقظ سحرا أو غسقا ، فنطلع الى الشاطىء، لنرى سفن الثورة خافقة الرايات، وهي تنزل الى مواقعنا المحاصرة، فيلقا امميا ومدافع الليزر. . . لم نكن لنريد هذا. أردنا فقط ان يظهر على أرض الواقع، والى جانبنا، ثقل الجبروت الحقيقي لقوى الثورة في العالم وأن يفلح في تعديل الميزان تعديلا واضحا لصالحنا، بحيث نخرج من حالة « الاستفراد » العجيبة، ولكي تبدأ المحاجة. لكي يبسط الأمر سهلا صريحا مثل راحة الكف. يمكنني أن أقول الآتي في نقاط :

● اسرائيل، المخفر المتقدم للأمبريالية، تشن عدوانا مكثفا على حركة ثورية متقدمة يتعلق بها مصير الشعبين اللبناني والفلسطيني.

● اسرائيل تستخدم السلاح الأميركي.

● اسرائيل لم تطالب موافقة نظام عربي على عدوانها.

● اسرائيل ليست ذات مرتكز عربي في منطقة العمليات.

ـ اسرائيل تستهدف من هذه العملية، في النهاية، وضع الاطار الأميركي حول الصورة الجديدة للمنطقة بأسرها، وبالتالي، تهديد الاتحاد السوفييتي من الجنوب.

ـ أي نجاح في تحقيق الأهداف الاسرائيلية سوف يعيد المنطقة نصف قرن الى الوراء، ويلحق بحركة الثورة والتحرير خللا استراتيجيا فظيعا.

ـ أثبتت التجربة منذ 1956 حتى 1973 نجاح قوى الثورة العالمية في لجم العدوان وردعه، والتوصيل الى نتائج ملموسة لصالح قضية التحرر في المنطقة.

وبالمقابل نضع النقاط الآتية :

ـ تمثل المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية أعلى تطور بلغته القوى الثورية في الوطن العربي، وتشكلان ضمانة فعلية لامكانات التغيير وآفاق المستقبل.

ـ تتمتع المقاومة الفلسطينية بمعاملة الدولة في أكثر من بلد إشتراكي .

ـ طلبت الثورة الفلسطينية، المساعدة، بإلحاح.

ـ مساعدة قوى الثورة العالمية ذات مرتكز عربي فعلي، شعبي ورسمي .

ـ ذبح الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية سيؤدي بالنتيجة الى ذبح الثقة بقناعات كثيرة تتصل بالعلاقة بين قوى الثورة في العالم الثالث، وبين قوى الثورة العالمية.

ثمة، بالتأكيد، تفاصيل ومداولات، وزيارات سرية وعلنية، ورسائل سرية وعلنية، وطلبات وطلبات مقابلة، وأوقات للرضا أو الغضب، ووعود وعهود، وموفدون يروحون ويغدون، ويراوحون، بين المطارات والأزقة والغرف الموصدة. . وربما عرض كل شيء، وعرضت كل المخاطر وجرى إتفاق كامل، وتطابق تام، في وجهات هذا كله، بالتأكيد.

لكن المقاتلين المحاصرين في بيروت ليسوا معنيين كثيرا بتطابق وجهات النظر. أنهم معنيون برفقة السلاح، معنيون بالطريق الواضح والماء الصافي.

عشرون الف إصابة

الضابط الصهيوني الذي كان يشرف على رفع انقاض الآليات الاسرائيلية قرب بعبدا ، تحدث بسخرية مريرة عن ذلك « المدفع الوحيد » المتبقي لدى الفلسطينيين ، قائلا وهو يشير الى آلياته المدمرة : « يبدو انهم اجادوا استخدامه شيئاً ما ! » . . واضاف في معرض حديثه عن احتمال اقتحام بيروت الوطنية : « لو افترضنا اننا سنتكبد اصابة واحدة فقط عند اقتحامنا أي مبنى فإن هذا يعني عشرين الف اصابة بين جنودنا » .

ويبدو ان هذا الضابط الصهيوني كان متفائلاً جدا في معادلة « مبنى واحد اصابة واحدة » ، او انه كان يمني نفسه وجيشه بخسارة الحد الأدنى رغبة في « رفع المعنويات » . .

فالشواهد والمشاهد اكثر من ان تحصى ، وكلها يشير الى ان العدو تكبد خسائر عالية في أي مكان تحققت فيه الارادة القتالية ، ووضح فيه القرار فوجد المقاتلون انفسهم ازاء المهمة التي انتظروها طويلا ، مهمة رد العدو وردعه وتدميره .

ولا اعتقد ان هذا الضابط الصهيوني ، سوف ينسى يوما ، كابوس « خلدة » . على سبيل المثال ، « خلدة » التي اسست التحدي الأول لمعادلة « مبنى واحد اصابة واحدة » التي تمناها الضابط العدو . فأي مبان كانت في خلدة ؟ اذا كانت البنايات الثلاث هناك او ما نحوها ،

قد كلفت العدو عشرات القتلى والدروع ، واوقفته وهو يلعق جراحه طوال تلك الأيام المجيدة . . . فماذا تراه صانعا بالغابة الناهضة التي تشكلها بيروت ؟

ان المرء ليظل يذكر بالفخر والاعتزاز اولئك المقاتلين الذين اجبروا الموجات البربرية على الانكفاء ، موجة بعد اخرى ، وارغموا العدو على الالتفاف ، بعد ان عجز عن المواجهة . ان المرء ليتذكر قائد القوات المشتركة في محور خلدة ، ومساعده ، اللذين دخلا في الاسطورة الشعبية ، في ضمير الأمة الطاهر .

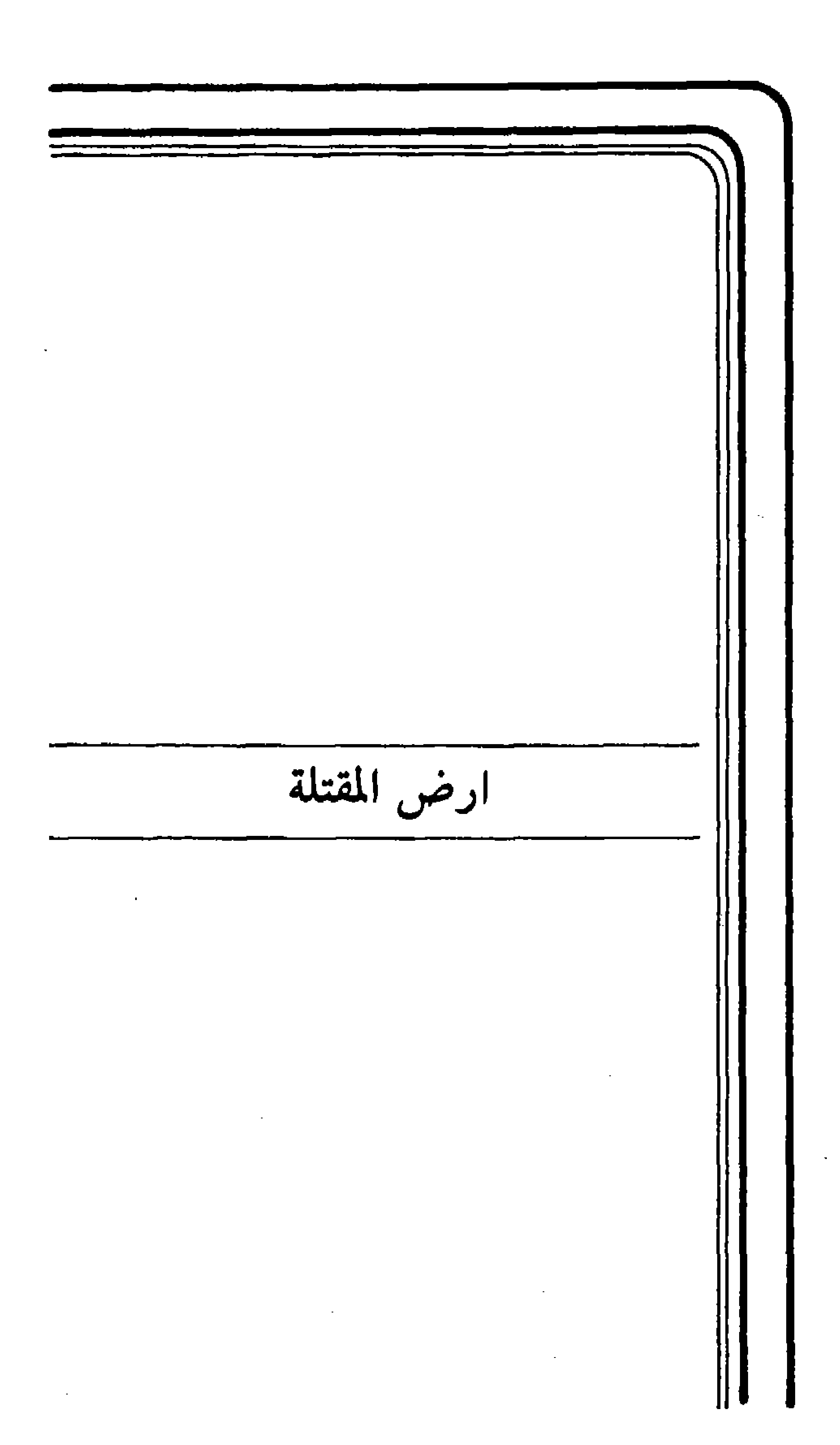
وما يزال المقاتلون يروون حكاية ذلك الضابط في الجيش العربي السوري الذي اختار البقاء في محور خلدة ، ليقود وهو في دباباته عمليات المواجهة البطولية ، لقد كان « ينطح » فعلا ، دروع العدو المتقدمة ، في واحدة من اهم معارك الدبابات التي خاضتها القوات المشتركة ، بينما كانت نيران العدو تنصب من البحر والجو والارض ، وكان ينتقل من دبابة اعطبت في جحيم المعركة ، الى دبابة اخرى ، مواصلا المجابهة المجيدة .

□

الضابط الصهيوني الذي كان يشرف على انقاض آلياته في تلال بعبدا متفائل جداً بمعادلته الصغيرة .

لكنه سيجد ان هذه المعادلة سوف تختل اختلالاً عجيبا ، لتغدو بيروت مقبرة كبرى للغزاة ، لو جرؤ شارون واقدم على حماقة ما ، فما يزال لدى القوات المشتركة ذلك . . « المدفع الوحيد ! » .

1982/7/20



ارض المقتلة

يفقد المرء الاصبدقاء ، فيكون لفقدهم اثر الحز على المحز ، لكننا حين نفقد رفاقا نحس بأن النجم ذاته قد طعن ، وبأن الارض لم تعد في ذلك المدار الذي طالما جهد هؤلاء الرفاق من اجل تسريعه فتغييره .

وفي « الفاكهاني » فقدنا اصدقاء ، ورفاقا ، وارضا ، ومدارا . تسمى ولا تسمى .

انك في المضطرب نفسه ، في المعترك الذي اخترت ، ومن يدرك بأنك لن تغدو ، يوما ، بين اصدقاء ورفاق يفتقدهم سواهم ، تحت الانقاض ، أو عند الشاطىء ، أو بعد استدارة طريق ، او عند مقهى .

لكن . . لم هذا الحديث عن النفس ؟ لم حديث النفس ؟

الم تر عمارة مسواة بالارض ، حتى حجرها لم يعد حجرا . . انه تراب أو ما يشبه التراب . . أين النوافذ المتألقة في المساء بالنور والزهر ؟ وتلك الستائر ، والغسيل الطري . . والاطفال الذين حرموا الملاعب ، فظلت عيونهم الواسعة تلعب في الأفق والعمارة الأخرى ؟ عمارة « رحمه » ؟

ان بينك وبينها اكثر من وشيجة . والفتيان الذين كانوا يحرسون

مداخلها . . . الم يلهموك أكثر من نص . . الم يجعلوك اكثر تماسكا وانت تراهم يتمسكون ببنادقهم تمسك الكتف بالذراع ؟

في هذه العمارة كنت تلتقي اصدقاء ورفاقا . . هويتك تكاملت هنا ، وخطوك صار اكثر وثوقا . . بل ان كلماتك صُفّت هنا في مطبعة للمستقبل فقدت ثلاثة ، بينهم شهيدة من بلادك .

والدكاكين وعربات الخضار والفاكهة . . . باعة السجائر والأطفال المتراكضون .

ثمت غرفة تسمى مكتبا ، واخرى تدعوها ملاذا ، وثالثة تنبه عينيك الى حلم . . . ورابعة احببت فيها خصلات امرأة .

ومسكن صديقك الشاعر المثقل بـ « احتمالات الوضوح » . . . لقد تناثرت « الاحتمالات » مع اوراقه وملابسه وصندوقة الخشب الثقيل وذكريات فتوته . . . تناثرت مع غرفة نومه وشرفته الطويلة . وصديقه الرسام ، تلك المثلة . . . كيف نجوا في مصادفة محض . . .

تدور ، دائما بين الانقاض ، والحديد الملتوي ، والخشب المسود . تنظر الى ما بقي من هذه العمارة او تلك . . هذه الخرق الخافقة في الريح ، المعلقة ببقايا النوافذ والغرف . . كم تلمست حرارة الجسد البشري ، ونعومته ، ومجده . . . كم مسدت وازدهت . . . اي أعراس وحيوية يمكن لهذه الخرق الخافقة أن تروي وتستعيد . .

نهار المقتلة . .

نهار الظلام العربي . . .

لكن الثورة ما تزال متمسكة بالبندقية ، تمسك الكتف بالذراع . فهذا الفتى الذي يحرس ما تبقى من مقر . . . الم تعرفه قبلا ؟

وهؤلاء الذين يتداولون سيرة مجلة راهنة ، او يخططون لمجلة جديدة ، او يرتدون الملابس العسكرية في فترة الواجب او يقطعون عادات الكحول ، او يكونون اكثر تواضعا ، او يدركون اخيرا ان

الحرية فعل ، او يحبون زوجاتهم وصديقاتهم حبا اكثر عمقا ، او ينظرون الى العالم في معادلة أوفر دقة ، أو يتخلون عن اعتبار « اسرائيل » دولة متمدنة ، أو يتركون الرصيف ليلتحقوا بالكتيبة ، او يتلقفون الكتاب الجديد كمايتلقفون الخبز الساخن ، هؤلاء جميعا ، ما يزالون في « الفاكهاني » . . . انهم اصدقاؤك ورفاقك ، والأهل الذين تباهي بهم .

انك ما زلت تدور ، دائخا ، بين الانقاض . . . صداع حاد يمسك بك تحت الشمس الشديدة . وانت ما زلت تدور . . . من هنا اخترق الصاروخ العمارة . . . موجة هائلة من الهواء المندفع المضغوط تقذف بالأثاث والبشر والابواب والنوافذ . . . وفي جحيم الدمار تدور مآثر اسطورية ، مآثر القديسين والشهداء . .

« الفاكهاني » أرض المقتلة والثورة .

ساحة ضيقة وتضيق .

لكنها لن تظل تضيق الى ما لا نهاية .

هذه الساحة التي اراد العدو ان يجعلها مقتلة لنا جميعا . . . هذه الساحة سوف تنتشر يوما ما ، على امتداد الارض الواسعة التي نعرفها ولا نعرفها ايضا .

الوليمة

كنا في أحد ايقافات اطلاق النار التي لا تملأ حتى الفسحة بين سجارتين نطوف في المناطق المسماة « مشارف بيروت » ، سالكين سبيلنا عبر بئر العبد ـ حارة حريك ـ الغبيري ـ الرويس ـ التحويطة ـ المريجة ـ وصولا الى حي السلم . . وربما الى الطيرو .

لكننا لم ندرك أي مكان نحن فيه الا حين كنا في حي السلم ، قال لنا احد الشباب : ما غرضكم من الجولة ؟

■ نريد ان نحاور المقاتلين .

ـ لكنكم قد تجدون انفسكم في حوار مع اليهود هناك . . بالقنص .

■ نعود اذن ؟

ـ على مسؤوليتكم .

شربنا الشاي شبه متعجلين . لم نسأل كثيرا ، فالوقت ليس وقت كلام وثرثرة ، وطائرات العدو تقصف الجبال غير البعيدة ، مندفعة فوق رؤوسنا .

غادرنا حي السلم .

وفي طريق العودة الى بيروت المدينة ، دعينا الى الغداء ، الطاولة مستديرة . الوجبة مقلوبة .

ولبن رائب وخبز . فجأة ازداد هدير الطائرات ، أحسسنا بالمكان يهتز ، المضادات الارضية (قريبة) تنشط بوتيرة عصبية . المقلوبة امامنا ، والجوع لا يرحم .

لكننا بين ان نكون في وليمة ، وأن نكون وليمة لليهود ، اخترنا ـ اسفين على بقية المقلوبة ـ ان نغادر المكان في سرعة الغزلان !

شهادة الاطفال الرضع زمن الحرب

تتلمس في العتمة المطبقة ، مرقاك الى « مستشفى » الاطفال . المدينة المحاصرة تتنفس هواءها المكتنز في هذا الليل ، مشبعا بدخان الحرائق والترقب . وانت على مدار الساعة مشدود الى التفاصيل اليومية لحياة المدينة العربية الوحيدة التي ظلت تواجه العدو هذه المواجهة العجيبة . ها انتذا تبلغ الباب ، تطرقه يفتح الباب ، وتدخل المستشفى . لا كهرباء ولا ماء . والاطفال « كلهم رضيع » في اسرتهم ، مستسلمون الى اذرعة الليل . ثمة أم حرصت على ملازمة طفلها ، وهي تهدهده ، دون جدوى ، محاولة ايقاف صراخه الثاقب . وهناك ممرضة تضع زجاجة الرضاعة بين شفتي طفل جائع ، بينما تتمدد على أرضية الشرفة ، ممرضة اخرى ، بانتظار نوبتها . قالت الطبيبة : كان الاطفال في مستشفى واحد مع الجرحى . الأمر صعب . هكذا قررنا فتح هذا المستشفى خاصا بالاطفال . كنا مستعجلين ، وسوف نستكمل احتياجات المكان . عملي ليلي . بهذه الطريقة اتخلص أيضا من مشكلة المبيت والتنقل ومستلزمات الجو المنزلي ، وأحس أنني اقدم للناس في هذه الظروف الصعبة ، طاقتي كلها .

ـ أهناك سن معينة ؟

نقبل المرضى الذين تمتد اعمارهم من ثلاثة اشهر الى ثلاث عشرة سنة .

ـ هل الاجهزة متوفرة ؟

ـ متوفرة ، لكن انقطاع التيار الكهربائي يؤذينا حقا .

في غرفة الطبيبة كنا نحتسي شايا فاترا له طعم الزيت .

فجأة ، عم المستشفى ضوء باهر ، وسمعنا اصوات انفجارات ترج الليل الساكن رجا . اندفعنا ، بين الأطفال المتصارخين الى الشرفة . كان الاسرائيليون يلقون « قناديل » الاضاءة ، والقنابل الصوتية ، من الطائرات والبوارج ، وكان الليل الممزق يبدو ، في مستشفى الاطفال ، منتهكا حتى الفظاعة . الطفل الذي كان ينقل اليه الدم صرخ صرخة وحشية وسط الانفجارات المتتالية ، فألقت امه بنفسها عليه حتى لا يتغير انبوب الدم عن موضعه .

وكان بيننا من يقول : اتركوا الشرفة ، ادخلوا رجاء . اتركوا الشرفة . مستشفى الاطفال ، في ليل بيروت المحاصرة ، محاصرة بقذائف الاضاءة والقنابل الصوتية ، محاصر بالطائرات والبوارج ، لا ماء ولا كهرباء ، مستشفى الاطفال يطلق صرخته في ظلام العالم .

حديث الطقس

لكأن الحفاظ على هدوء العصب وطمأنينة النفس ، اعز ما يرجوه المرء في هذه الأيام . ومن اين يأتي العصب الهادىء والنفس المطمئنة ، بينما تشتعل السماء ، وترتج الأرض ، وتتصاعد الحرب السيكولوجية ، وتتقطع علائق او تهن ؟ بل لقد يكون أحدنا رخيا رضيا ، وطن نفسه على موقف سليم ورأي سديد ، لكنه ، وهو الرخي الرضي ، يسعى الى اصحابه في مظانهم ، طالبا شد ازره في سلامة الموقف وسداد الرأي ، فما يكاد يلقاهم حتى يدور الحديث ويشتبك ، وتختلط خيوطه وألوانه ، فإذا بصاحبنا مشتبك مرتبك ، واذا بالعصب الهادىء متوتر ، والنفس المطمئنة قلقة لاهثة .

قد لا تعني الحالة كثيرا لو كان اصحابها هواة او اغرارا او محدثي سياسة ، او متقولين متأولين لا يأبه احد بما تقولوه وتأولوه . انهم ، والحق يقال ، ذوو رأي يسمع ، وينقل ، ويذاع ، مسؤولون عن كلمتهم امام الناس ، حتى لو لم يكونوا أهلا لها .

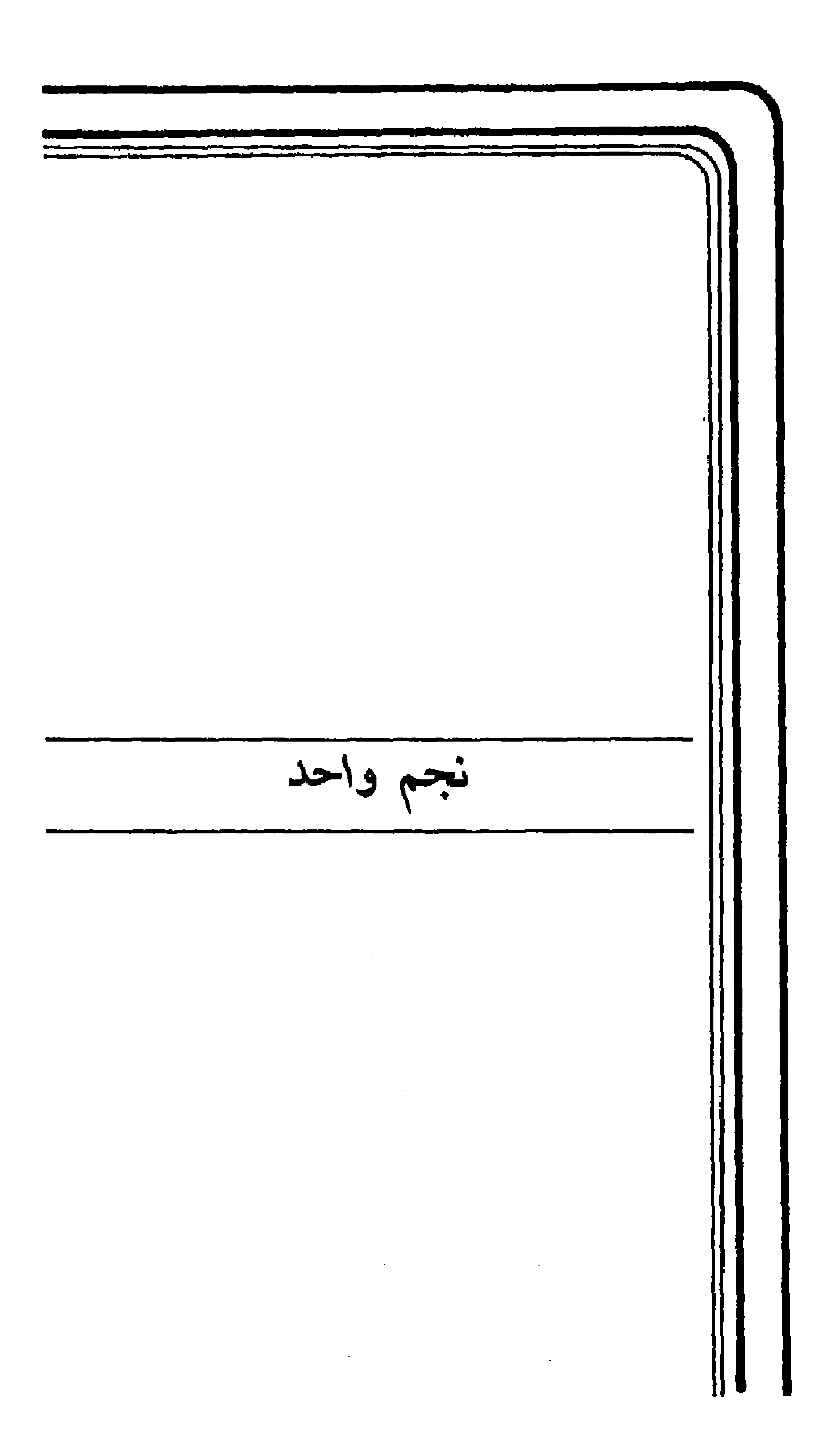
هل تعلم حكيماللحكمة؟ لا بأس ، فالحكيم يمرض ايضا ، والمرء في هذه الحومة الصعبة قد يعتريه ما يعتري سواه من بني الانسان ، والانسان قوي مثلما هو ضعيف .

قد يصح كلام كهذا ، وقد لا يصح . الظرف صعب حقا . لكن تحمل المسؤولية في الظرف الصعب هو التحمل الحقيقي ، بل

الوحيد ، وإلا فأي مسؤولية تلك التي يتباهى بها في اوقات الرخاء ، حين الريح مواتية والسمك كثير ، والمنتظرون استقبالنا على الشاطىء أكثر ؟ وأي مسؤولين نحن ان اضاعت لحظة شدة كل ما شيدناه في أزمنة الرتابة المشحمة ؟ ثمة جانب ايجابي في الامر كله : حسنا لو خضتنا لحظة الشدة ، فقد وضعتنا امام خيارين : اما ان نهدم ما تراكم من ازمنة الصدأ لنبني انفسنا فنتجاوز اللحظة اقوياء اطهارا ، او نترك المسؤولية المعينة لمن ينهض بها .

ونحن الرابحون في الحالين .

ترى . . الى أي حد يوصل الحديث عن الطقس !



نجم واحد

هذه الايام يصعب النقل ويكثر التنقل ، ويغدو البحث عن الاصدقاء مهنة صعبة حقا . بعد الغارة على الاونسكو شعرت بقلق شديد على ادونيس . حاولت ـ بدون جدوى ـ أن اهتف له . . . وفكرت في أنه قد يكون ارتحل الى مأمن ، وارتاح في ملاذ ، داخل بيروت او خارجها . وسألت عنه ، والححت في السؤال . حتى عرفت بالمصادفة المحض مكانه ، اذ ترك منزله المهدد الى مكان اكثر امنا . مساء معتم . لا كهرباء . ووجوهنا جميعا مرهقة مثقلة . القهوة امست بلا طعم والحديث نفسه لم يعد ، لمرارته ، حديثا .

قال اودنيس : بيتي كله اوراق وكتب ولوحات . . . عود ثقاب واحد يكفي لاشعاله فكيف بهذه القذائف والصواريخ كلها ؟ قيل لي ان اغادر بيروت . . . لكني قررت البقاء . الا أني لا استطيع ان افعل شيئا . القراءة صعبة ، والكتابة اصعب . وانا لست مغرما بالمتابعات الصحافية . ثم ان صورة ما يجري بالغة التشوش . أي غد سنكون فيه بعد الحرب ؟ وهل سنكون قادرين على المراجعة الشجاعة ؟ ان مصطلحا من مثل « العروبة » يجب ان يعاد النظر في مضمونه اعادة جادة . اين القوة الفعلية لكلمة « عروبة » الآن ؟ ربما قال قائل بدعوى الحكام والمحكومين ، دعوى الحاكم المستبد والشعب المقهور . . لكن . . لماذا جمدت شعوبنا ، ووهنت ، وارتضت

حكامها امرا واقعا ؟ سوف تنتهي هذه الحرب ، كما انتهت حرب 1967 . . فهل نحن فاعلون شيئا ؟ لقد اعلنت هذه الحرب النهاية المضحكة للفكر القومي المتوارث ، فهل اليسار آت ؟ هل الديمقراطية قادمة ؟ وهل سيسمح لنا ، في الأقل ، بالنقاش الصريح ؟

ليست مبكرة هذه الاحاديث ، اذ لم نعد قادرين على ان نغفر لحاكم تواطأ ، أو تفرج ، أو شمت . لم نعد قادرين على تحمل كل هؤلاء الذين ابتنوا دولهم على كلمة فلسطين ، وكانوا أول من طعن شعبها في ساعة الضيق والحرج . لم نعد قادرين على تحمل كل هذه الوجوه الكريهة التي ابقت شعوبنا اسيرة العنت والقهر والجهل والظلام ، متكفلة للمستعمر ذاته بأن تسوم الشعوب بطشا أشد حتى من بطشه . من يقرع الاجراس ؟

الشرفة تزداد عتمة . الليل ساكن جدا على نحو منفر . والاحاديث تزداد حدة ، وتمتد مسافة . من يدري . . . لعل هذا الليل هو الليل الأخير ولعل نجما ، نجما واحدا حسب ، يطلع ما بين الماء والماء . . .

غرفة المحكمة

بعد شهر ونصف من احتلال جيش عدو ، بلدا عربيا ، واطباقه على عاصمة عربية ، وتنكيله بعشرات الآلاف من الفلسطينيين واللبنانيين ، بعد هدم المدن ، وتسوية المخيمات بالارض . . ، بعد ان ابدى الحكام العرب ، منتهى الحكمة والتعقل و« ضبط النفس » قد ينعقد واحد من اشنع مؤتمرات القمة في العقد الأخير .

والشناعة في هذا المؤتمر متأتية ، أساسا ، من انعقاده .

لو لم ينعقد المؤتمر لكان لنا بصيص من أمل ، ولقلنا ان الحرب الخامسة سرعت في فرز ما ، ودفعت هذا أو ذاك الى موقف جاد في الاقل ، وعلمت اناسا معينين ما لم يعلموه ، وجعلتهم يفكرون بما يفكر به الناس ، وما يقولونه عنهم ، سرا أو جهرا .

لكن المؤتمر ينعقد ، ليكون « اللبنة » الأولى للاجماع العربي العتيد ، وليلتقي المؤتمرون جميعا ، هاشين باشين ، يسند بعضهم بعضا ، اكفاء اندادا متساوين ، كأسنان المشط ، فلا فرق بين حاكم عربي وحاكم عربي الا بالتقوى .

في المؤتمر يلتقي هؤلاء جميعا .

ويظل الغائب الأعظم ، حاضرا في أماكن اخرى ، في مدن عربية اخرى .

يظل الشعب ، ينسج بيديه الخشنتين ، رايته التي سترتفع يوما ما ، أبعد من المؤتمر ، أبعد من كل ما فكر به الحاضرون وخططوا له . . .

يظل الشعب يبني ، بيديه الخشنتين غرفة المحكمة !

من الثغور الى العواصم

صعوبة الكتابة في هذه الايام ، لا تأتي من التنقيب عن موضوع تختاره وانما من حشد المواضيع الذي يهجم عليك ، ويشدك من خصلات شعرك او اذنيك ويتخاطف امام عينيك ، ويجعلك في حالة هي الى الهوس اقرب .

والصعوبة ايضا هي ان ما حولك حائل مائل ، لا يكاد يبين له لون ، او يستقيم خط ، وكل لحظة هي جديد ـ قديم . والشواخص هي مثل صور البط في العاب الرماية ، غائبة حاضرة ، تسقط واحدة لتنهض اخرى ، وانت ممسك ببندقيتك . تعد ما تبقى من لحظات او طلقات ، وتعجب لهذا البط المترنح ضحكا ، الممتلىء عافية ، وانت تلاحقه ولا تلاحقه .

تقول ، فلأجرب الكتابة عن الاشياء ، عن تفصيلات حياة يومية ومصائر واصدقاء ، عن شظف العيش ، ومرارة الاستفراد . . وتكتب . . لكنك تشعر بأن امرا فادحا يحدث ، امرا يهبط مثل سقف ثقيل على هذه التفصيلات كلها ، فتنكفىء ثانية تتفكر وتحاول ان تدبر ، لعل الله مهيء لك من امرك رشدا . وتمضي في انكفائك حتى تلجأ الى خندق اخير في محاولة الكتابة ، هو ملاذ مضمون الى هذا الحد او ذاك ، ملاذ النفس الامارة بالخير ، التي قد تستنطقها فتنطق ، وتسألها فتجيب ، وتستبطنها فتظهر . لكن لهذه الحالة مستلزماتها من

هدوء واسترخاء ورخاوة ، ومغالبة العالم الخارجي الى حين يطول او يقصر ، حسب ما تقتضيه الضرورة ، ومن اين يأتيك الهدوء والاسترخاء والرخاء ؟ وكيف لك بمغالبة العالم الخارجي وهو يقصف عليك السقوف والابواب وزجاج النوافذ ، ويرد عصبك وترا في قوس مشدود حتى اقصاه ؟

هون عليك يا ولدي . والله ، لولا داء في التثاقف - اورثته وما استطعت له شفاء ، لما احترت هذه الحيرة كلها ، وترددت مثل هذا التردد . . ومن يقرأ هذه الأيام تلك القراءة التي تتهيبها ؟ ومن يسألك ان شططت هنا وهناك او زلت بك قدم . وخانتك صورة ؟ الناس في شغل عنك . . وانت في شغل بهم . . حسنا . . لماذا اخرت اعترافك هذا ؟ التكتب هذه الصفحة اذن ؟

الثغر : ما يلي دار الحرب . وفي الحديث : فلما مر الأجل قفل اهل ذلك الثغر . قال : الثغر الموضع الذي يكون حدا فاصلا بين بلاد المسلمين والكفار ، وهو موضع المخافة من اطراف البلاد (لسان العرب) . وتعتبر النظم الاسلامية دار الحرب هي الدار الاجنبية الواقعة خارج اقليم الدولة ذات السلطة المركزية الموحدة ، نعني اقليم . . دار الاسلام . الذي يشمل جزيرة العرب ، والبلدان المفتوحة (أي نحن الآن) .

ان خط الحصون الخارجي الشمالي سمي بالثغور . وخط الدفاع عن سورية هو الثغور الشامية . اما خط المعاقل التي اتخذت للدفاع عن العراق فقد اطلق عليه اسم الثغور الجزرية . وقد سميت هذه المعاقل وما يحيط بها بالعواصم وهي مراكز ستراتيجية عند تقاطع الطرق العسكرية او مداخل الممرات الجبلية .

« ولقد قاتل العرب في سبيل كل شبر من هذه الاراضي قتالا عنيفا في فترات متعددة في عهود الامويين والعباسيين ، ولعله ليس في آسيا كلها ارض خضبت بدماء المقاتلين في الحروب المختلفة كما خضبت هذه الارض »

ـ فيليب حتي . ومن لا يذكر ابا الطيب في مغامرة الرحيل من

مصر :

فلما أنخنا ركزنا الرماح بين مكارمنا والعلا .

وبتنا نقبل اسيافنا ... وتمسحها من دماء العدا

لتعلم مصر ومن بالعراق ... ومن بالعواصم اني الفتى

يرى اليازجي ان العواصم التي ذكرها المتنبي « بلاد قصبتها انطاكية » ، ولكن أي معنى يبقى في هذه الحالة لقول ابن العميد وزير ركن الدولة حين سمع هذه الابيات : ايتهددنا المتنبي ؟ اتراه سمع الابيات برواية أخرى ؟

لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بخراسان انى الفتى

مهما يكن من امر ، فإني اميل الى ان استاف في كلمة « العواصم النكهة ذاتها التي نحس بها اليوم ، والتي هي اقرب الى ما توحيه « الحواضر » من علائق .

« والعواصم » ، بعد من العصمة . أي المنع ، فهي ممنوعة عن العدو ، ممتنعة عليه ، منيعة الموقع ، مانعة العدو . . الى آخر ما في اللغة العربية من امكانات هائلة للاشتقاق .

والحق أن اسلافنا الذين اختطوا الحواضر والعواصم كانوا مسكونين بهاجس الدفاع عنها الى حد غريب ، وجهدوا جغرافيا وعمرانيا فأعطوا هذا الهاجس حقه ، وحافظوا على حواضرهم وعواصمهم قرونا .

في هذه الايام ، امحى الفرق بين الثغور والعواصم ، لقد قاتل الفقراء « في سبيل كل شبر من هذه الاراضي قتالا عنيفا » ، و« قلعة شقيف » التي اتفقت اجهزة الاعلام الغربية ، فجأة ، على تسميتها بالاسم الصليبي ، شاتوبوفور ، او حصن بوفور ، هذه القلعة الواقعة على « خط الثغور » ، هي شاهد ناهض على قتال الفقراء .

وبيروت ، العاصمة العربية ، ألم يقاتل فيها الفقراء ، باستماته المشهد الاسطوري ، وما يزالون يقاتلون ، في وجه شراسة همجية لم

يشهد لها التاريخ مثيلا ، منذ الحرب العالمية الثانية ؟

وصور ، وصيدا ، عين الحلوة ، والرشيدية . . والضاحية الجنوبية والدامور التي تحملت آلاف القذائف والصواريخ ، وحملت على كفيها الممزقتين اسلحتها وشهداءها وروحها المقاتلة ؟

اننا امة عديدة العواصم ، عواصم مؤسسة في الضمير العريق ، القدس، دمشق ، بغداد ، بيروت ، الجزائر ، الرباط ، طرابلس ، القيروان . البصرة ، صيدا ، غزة هاشم . فسطاط مصر ، مكة ، عدن ، صنعاء . . وليس اوجع على امة من فقد عاصمة ، فكيف بنا نحن ، وقد فقدنا عاصمة هي القدس ، وها نحن اولا ، مهددون بفقد عاصمة اخرى هي بيروت ؟

ان وجعنا ليس فقط في أننا فقدنا عاصمة ، ونكاد نفقد عاصمة اخرى ولكن لأن العديد من عواصمنا مهدد ايضا او لم تبلغ الطائرات الاسرائيلية مفاعل بغداد ؟ أو لم تحاول مرة ان تشق طريقها الى مشارف دمشق ؟ الم تكن القاهرة هدفا للقنابل ؟ الم يهدد الاسرائيليون بقصف طرابلس ؟ والانجليز والفرنسيون والايطاليون والاسبانيون . . الم يطبقوا على اسماء عواصمنا عشرات السنين ؟
ايراد بنا أن نعود ، ثانية ، الى ذلك العصر الذي ظنناه مضى وانتهى عصر الاستعمار القديم . . عصر البارجة والمستوطنين والحملات « التأديبية » وابادة السكان المحليين ؟

وأن كان هذا حقا . . فهل يحق لنا ان نسمي زمننا هذا ، زمن الاشتراكية ؟ لكنه سؤال عربي على أي حال . .

نداء الى كتّاب العالم

أيها الاخوة الكتاب في عالمنا الصغير .

قد يصلكم هذا النداء متأخرا ، بل جد متأخر . فالآلة العسكرية الصهيونية ـ الاميركية تزيد من احكام قبضتها على الكيلومترات المربعة القليلة التي نحيا فيها ، سوية ، مع المقاتلين في سبيل الحرية ، المدافعين عن بيروت ، وعن المثل النبيلة التي ظلت تلهم بني الانسان قرونا وقرونا .

وامس ، في الأول من شهر اب (قمة عطلاتكم الصيفية) ظلت ستون طائرة اسرائيلية تقصفنا بالقنابل والصواريخ اثنتي عشرة ساعة متواصلة ، ومعها كانت المدافع (الهويتزر ايضا) . . . ولقد نزلت على كيلومتراتنا القليلة مائتا الف قذيفة ، وبلغت غارات الطائرات مائتي غارة ، وتهدمت منطقة كاملة من العاصمة بيروت تهديما تاما . ان هذه المنطقة ايها الاخوة الكتاب تضم مقرات اتحادات ادبية وفنية وصحافية ، واروقة ومتاحف للفن التشكيلي ومسارح ، ومكتبات . ومطابع ، وصحفا ومجلات ودور نشر عريقة . انها باختصار ، البؤرة التي استطاعت الثقافة العربية الحديثة ان تكونها بعد جهود مضنية وتضحيات مريرة في هذه المنطقة . أيها الاخوة الكتاب ، يعيش الكتاب العرب التقدميون ويعملون ، وبينهم كتاب من مختلف انحاء العالم العربي اختاروا هذا المكان لأنهم اختاروا الحرية ، ووجدوا

انفسهم في موقعهم الطبيعي الى جانب المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية . لقد ذكر زملاء لكم في نداء نشرته صحيفة « لوموند » ان الثروات الثقافية الفلسطينية واللبنانية مهددة بالتدمير في بيروت . ان فيما قالوه ، الحقيقة .

ايها الاخوة الكتاب

إننا الكتاب والشعراء والفنانين المحاصرين في بيروت منذ اكثر من شهرين ، نفعل ما في قدرتنا ، واكثر قليلا . ففي الخنادق ، ووراء المتاريس ، يقف الكتاب والشعراء والفنانون يدافعون بالبندقية العادلة عن حياة احبوها ، وابدعوا فيها ، وناضلوا من اجلها .

واننا لنكتب تحت القذائف ، وفي الملاجىء على ضوء الشموع . اننا مهددون بالموت في كل لحظة ، من البر والبحر والجو .

مهددون بالموت بالأوبئة التي بدأت تنتشر . لقد قطع عنا الفاشيون الماء والكهرباء والغذاء والدواء ، وصار الحصول على قنينة من الماء الصالح للشرب نضالا يوميا حقيقيا . . . وبالرغم من هذا كله ، نحن ثابتون في مواقعنا ، واثقون من يوم نظيف آت . . . وان اشكالا جديدة في الفن والصحافة والثقافة تولد في هذا الخندق الذي نحن فيه . . . اننا نستلهم ما فعله اخوة لنا ، في مدريد ، ولينينغراد ، وباريس ، حين اطبق عليهم الحصار الفاشي ، ونقدم ، بدورنا ، اسهامنا في تراث النضال الانساني ضد القهر والظلام والقوة الغاشمة .

لقد اعدم الاسرائيليون شاعراً شابا . وانتحر احد رواد حركة الشعر الجديد في العالم العربي احتجاجا ، واعتقل الغزاة عددا من الكتاب والصحافيين . . . ان ما حدث حتى الآن ليس سوى مثل عادي لما يمكن ان يفعله الفاشيون الاسرائيليون لو اقتحموا بيروت بدباباتهم .

ايها الاخوة الكتاب

اننا نتطلع اليكم من وراء المتاريس ، في بيروت العاصمة

الثقافية ، بيروت التي ادخلت اسماءكم وكتبكم الى ضمير القارىء العربي ، وسهر عمالها ومثقفوها من اجل ان تقدمكم الى القارىء اجمل تقديم ، بيروت التي استضافت المؤتمرات والمهرجانات الثقافية والفنية ، بيروت المدينة العربية التي وضعت حرية الفكر موضع التطبيق متحدية الرجعية والظلام والتخلف .

نتطلع اليكم ، أيها الاخوة الكتاب في ارجاء العالم . .

نريد منكم ان ترفعوا اصواتكم . . .

ان تجيئوا الى بيروت لتقولوا لنا : صباح الخير . . .

ان تجيئوا الى بيروت لتقولوا للفاشيين لا . . .

انكم قادرون على العديد من الفعاليات والانشطة التضامنية . . .

ونحن ننتظركم . . .

ونحن ننتظركم . .

1982 - 8 - 2

الفصيل

انهم فصيل مقاتل كامل . شباب من بلادك ، قالوا : لا للفاشية هناك ، وقالوا : لا للفاشية هنا . وهم في هذا المساء الموحش يلتمون على أنفسهم ، ومع انفسهم ، قريبين من احشاء الارض التي يدافعون عنها ، وليس من يدل عليهم الا شاب وحيد في نوبة الحراسة عند هذا المحور الخطر .

تهبط الدرجات الكثيرة في عتمة شاملة . تهبط وتظل تهبط ، وتأسف لأن عينيك لم تعودا عيني هر متألقتين في الظلام . فجأة ترى نفسك على ارض مستوية ، وتسمع من يناديك باسمك ، ويقبلك محييا ، وتعجب لهذه العيون الحادة التي ترى ما لا تراه انت .

رفاق هم جميعا . بعضهم استطالت لحيته ، وتدلت على أول صدره ، وبعضهم نظيف الوجه كأنه حلق لحيته قبل دقيقة . . اما الملابس فذلك النوع من الكاكي الذي كاد يسود : بزة المقاتل في غير ساحة الاستعراض . يوقد احدهم شمعة ، لكن الظلام مقيم . فجأة يتألق مصباح كهربائي ، ويقول احدهم : نحن لا نشغل مولد الكهرباء كثيرا ، اقتصادا في الوقود . يقول ثان : نحن نشرب ماء باردا . لدينا ثلاجة . اتشربون .

هؤلاء الشباب اعرفهم، انهم متنوعو الاهتمامات بين المسرح والسينما والصحافة والشعر والفن التشكيلي، خلاصة ذكية متواضعة

قدمها شعبك للثورة الفلسطينية في لحظة كالحة. لقد تدربوا من اجل ان يحرروا الوطن، وها هم أولاء يركزون بنادقهم عنيدة على هذه الارض التي احبوا، والتي وهبتهم الكثير، وهم الان يهبونها كل ما يملكون. لم يسألوا عن تطورات الامور هنا، فالمقاتل لا يسأل كثيرا في الساحة، لكنهم سألوا عن البلاد البعيدة، ودار الحديث صعبا شائكا عن احتمالات هناك. هل سمعت اذاعة « صوت الشعب العراقي »؟ انها تبث على القصيرة، والمذياع لا يستقبل الموجة القصيرة ونحن في مثل هذا العمق. قال احد المهتمين بالكهرباء: بامكاننا وصل سلك كهربائي بين هوائي التلفزيون وهذا المذياع...

يقول لي احدهم: لم تعد تكتب في « النداء » قلت اريد أن اكتب شعرا. أجابني وهل من تعارض بين « النداء » والشعر؟

الحشيش والبقية تأتي



في اواخر تموز الماضي بثت اذاعة العدو باللغة العبرية هذا الخبر:
« ضبطت امس ثلاثون رزمة حشيش. يبلغ وزنها عشرين كيلوغراماً على الحدود الاسرائيلية ـ اللبنانية، في البوابة المسماة بوابة فاطمة مراسلنا كان هذا الصباح عند بوابة فاطمة، ووافانا بالتقرير التالي: تسير الاعمال في بوابة فاطمة كالعادة، ويلقى القبض يوميا على جنود ومدنيين (اسرائيليين) يحاولون تهريب اجهزة فيديو واجهزة كهربائية اخرى، عبر البوابة. وأمس وجد رجال الشرطة العسكرية العاملون هناك صيدا ثمينا.

فقد قال العقيد رومينيا المسؤول هناك:

رومينيا : احدى السيارات التي تأتي بالرمل الى الاراضي اللبنانية من مقالع كفار جلعادي ، اشتبهنا بأن عجلاتها الاحتياطية غير مليئة بالهواء ، بل في داخلها بالاضافة الى الهواء امور اخرى . وعندما فحصت احدى العجلات ، وجدت كمية كبيرة من الحشيش .

المراسل : وما هو حجم الكمية التي وجدت ؟

رومينيا : ثلاثون رزمة حشيش .

المراسل : هل تعرفتم على الشخص ؟

رومينيا : نقلت معالجة الموضوع الى ايدي رجال الشرطة المدنية

الاسرائيلية . وقد حاول سائق السيارة الهرب ، وبعد عملية مطاردة القي القبض على السيارة في كريات شمونة . وبعد ذلك امتثل السائق لاوامر الشرطة .

المراسل : ويشترون الحشيش بالطبع من لبنان . فثمن رزمة الحشيش نحو عشرة آلاف شيكل . وكان من المفروض بيع الحشيش المهرب بثمن عال يقدر بخمسة اضعاف سعره في لبنان » .

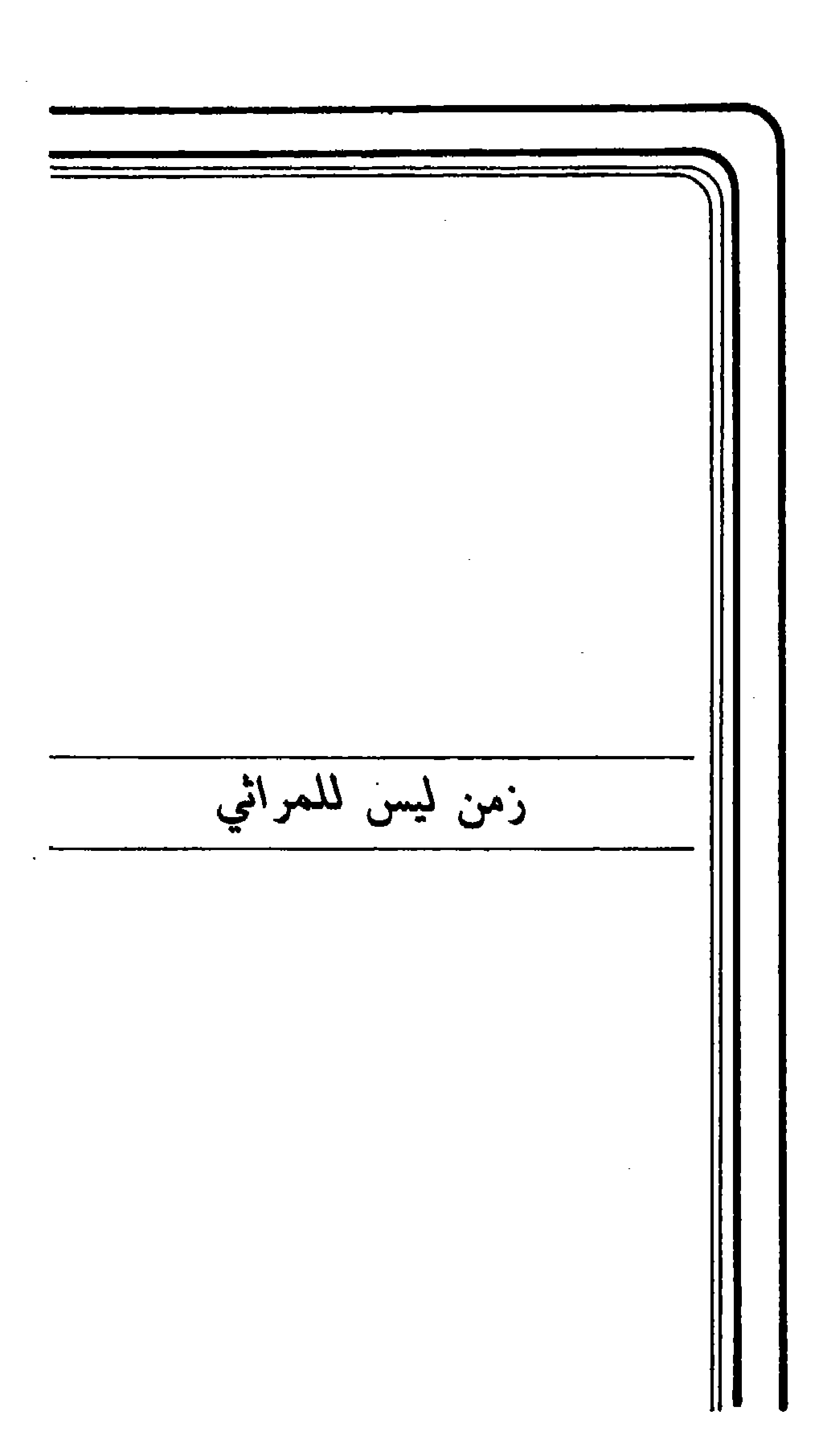
الذين « ابتهجوا » بالمحتل ، وقدمت له فتياتهم ، الزهور واشياء اخرى ، لا بد أنهم افاقوا قليلا من « بهجتهم » . . .

فالتاجر التاجر ، وجد في دكانه ، وبهذه السرعة الخاطفة ، شيلوكا جديدا . . .

تاجرا يهوديا من طراز حديث . . .

ماذا يفعل هذا التاجر « اللبناني » ؟ لقد اقام مجده كله على العملية التجارية ، بما فيها من براعة وغش وتهريب . . . والآن يأتيه من يقفز مثل قرد ماكر ليقطف اعلى جوزة في الشجرة .

حسنا اذن . . بدأنا بالحشيش ، والبقية تأتي .



زمن ليس للمرائي

« إنني اذا ذهبت الى الفلاة وناديت الوحوش : أيتها الوحوش ، هل سمعت بكم ثمّن الناس يسوعهم ، فماذا ستفعل الوحوش ؟ إنها ستنسل من اوكارها وتجأر غضبا ، ستنسى ذعرها امام الانسان وتأتي جميعها الى هنا لتأكلكم . اذا قلت للبحر : هل تعرف أيها البحر ، بكم ثمّن الناس يسوعهم ؟ اذا قلت للجبال : ايتها الجبال ، هل تعرفين بكم ثمن الناس يسوعهم ؟ فلسوف تترك البحار والجبال اماكنها المحددة منذ الازل ، وتأتي الى هنا ، وتسقط على رؤ وسكم » .

ليونيد اندرييف
« يهوذا الاسخريوطي »

اخيرا عرف يهوذا الاسخريوطي فداحة ما ارتكبه . فشنق نفسه في غصن « شجرة وحيدة عوجاء ، نصف يابسة ، انهكتها الريح التي تعصف بها من كل صوب » ، واخيرا ، سيعرف الحكام « العرب » فداحة ما ارتكبوه بحق المقاومة الفلسطينية ، لكنهم لن يجرؤ وا على شنق انفسهم . كما فعل يهوذا . ان صورة المشنقة والشجرة الوحيدة العوجاء ، ستظل الوصفة المهيأة للخلاص منهم ، خلاص هذه الأمة المقهورة المبتلاة .

لهذا اقول ان ما بعد الحرب الخامسة ليس زمنا للمراثي . ليس زمنا للشقاق والانشقاق . ليس زمنا للمباهاة بفتح ملفات انتقائية او موهومة . ليس زمنا لتحويل المرارة الى مهاترة . ليس زمنا لتجريح انفسنا بأسلحتنا او بأسلحة الاخرين . ليس زمنا لتداول نتوءات التفاصيل . ليس زمنا للجهر بما لم يجرؤ احد حتى على الهمس به يوما ما . ليس زمناً للاعتذار او تكلف الاعتذار . فليس ثمة ما يعتذر عنه .

لقد قاتلنا كما لم يقاتل العرب يوما ، وصبرنا كما لم يصبر احد ، وادرنا دفة الصراع بمهارة خارقة وسط عربدة الانواء ، وقلنا كلماتنا عالية صريحة ، وبحثنا بحثا عجيبا عن نفحة هواء نقي في الدخان الكثيف ، ونبشنا اجسادنا تحت الصواريخ والقذائف لنبعث الجمرة متقدة حتى النهاية . كانت قمصان شهدائنا ضماد جراحنا ، وكان عرق مقاتلينا الماء الذي نشرب ، وغضبهم الخبز الذي نغتذي .

ليس زمناً للمراثي . وليس لدينا ما نعتذر عنه ، لقد صنعنا الاسطورة . وحفظنا العناد الملهم . وأبقينا الفتى العربي فتى عربيا .
ليس زمنا للمراثي . إنه زمن اليقين .



الأسبوع الثامن

ها هو ذا الاسبوع الثامن ، وأنا اكتب عن الحرب .

لكني حين جئت « الحرية » قبل شهرين قلت لرفقتي فيها انني سأكتب في الثقافة فقط ، ولن أمر بالسياسة الا مسرعا خفيفا . هكذا كان الامر ، فإذا بالحرب تدق ابواب المدينة ، واذا بالمجلة ترتدي الكاكي . آنذاك تطوعت المادة الثقافية ، شأن العديد من المثقفين ، لتكون هي ايضا في المعركة . الحرب تطول ، والليالي المظلمة تزداد وحشة . الاصدقاء القريبون يبتعدون وثمة متاعب صغيرة وكبيرة ، بعضها شخصي شديد الالحاح . قبل ايام ودعت صديقا وزوجته . غادرانا الى عاصمة عربية آمنة . قلت للصديق ان يخبر أناسا هناك برعاية زوجتي ، فأنا باق هنا ، لا بسبب من شجاعة ، بل بسبب من اعتياد، والعادة عبادة في بعض الاحيان.

ماذا يفعل غير المقاتل هنا ؟ أ « يقعي » في منزله كما يقول احد الاصدقاء ؟ ايتجول . والتجول غير مأمون ؟ ايتلهى بالقراءة والكتابة بينما العصب مشدود متوتر ؟ أم يلجأ الى الورق متعابثا . . .

قد يفعل هذا كله ، لكنه يظل في اللاجدوى ، يأخذ على نفسه هذا العجز الفاضح . . . فيحاول ان ينفضه ، او ينفض بعضا منه : زيارة موقع . نشاط اعلامي . اسهام في فعالية اجتماعية . . . والحرب باقية والحصار يضيق ، والاصرار يشتد . يقول المتنبي

« خلقت الوفا . . . » ، لا بأس اذن ، فلتراجع المنبع الذي تركت ، والمعهد الذي درس او اندرس ، والمربع الذي كان ملعبا .

هكذا مضيت في مساء ما ، الى « الفاكهاني » . الليل الرطب الدافىء يتنزل ثقيلا ، وعند الكولا تتبين الجغرافيا الجديدة لهذا الموقع الاثير . الرمل والحفائر والابواب الموصدة والظلام شبه الشامل . عند الحاجز ، يستوقف السيارة الشباب . أنت لم تحمل هوية . ينظر احد الشباب في داخل السيارة . يبتسم . يقول : اعرفكم . . . تفضلوا وتحس بأن حياتك لم تمض سدى .

اردتما ان تزورا الفاكهاني جائلين سيرا على الاقدام . توقفان السيارة عند « الجامعة العربية » . . . مقابل تلكما العمارتين اللتين هدمتهما الصواريخ الاسرائيلية في الخامس والعشرين من حزيران الماضي . يأتيكما مقاتل ، ويرجوكما ان تبعدا السيارة عن هذا المكان . يقول لكما : حرصا على سلامتكما . . ثم ان في الفاكهاني هذه الايام اماكن عديدة لايقاف السيارة . لسنا الآن في ذلك الزمن .

وتتجهان الى المفرق عند محطة البنزين المغلقة . تنعطفان يمينا ، وتتوقف السيارة قريبة من المقر القديم لاعلام الديمقراطية . هنا تبلغ الوحشة غايتها الممضة . . فأنتما تعرفان بالدقة التامة كل زقاق ودكان هنا ، وفي بقايا المباني تعرفان الطوابق واحدا واحدا ، وتتذكران اصدقاء ورفاقا ومناسبات . قاعة عز الدين القسام . قاعة السينما في اعلام الديمقراطية . الفندق العتيد . المدخل ذا الحراسة الجيدة حيث إستقبلتما صديقا وصل للتو من البلاد . عبر الشارع كان يسكن فلان وفلانة . وهنالك بيت البخور والنبيذ . هنا استشهدت ثائرة . وهناك كانت المطبعة تدور بالقصائد وكلمات الثورة والملصقات .

لا احد في الشارع . هر سمين يدخل في زقاق . تصادفان احد الشباب ، تسألانه عن فلان . . . يقول لكما : تفضلا . تمضيان معه ، تدخلان ملجأ ، وفي العتمة التي لا تكاد تبددها شمعتان تجلسان الى من سألتما عنه . تشربان الشاي . ويبدأ الحديث الاليف بينما الهواء الثقيل للملجأ معلق مثل حجر .

حين خرجتما من الملجأ ، ووجدتما نفسيكما فجأة في العراء الموحش لليل الفاكهاني ، تلفتما قليلا ، حاولتما ان تلملما اطراف الذكرى المبعثرة . . . وان تتماسكا ولو مجاملة . . . حاولتما ان تدفعا ، بعيدا ، السؤال الماثل : « الفاكهاني . . . أيعود ؟ » . انتما تحتفظان بالجواب . وربما احتفظ اخرون ، مثلكما ، بالجواب الذي لا يريدون الافصاح عنه .

في البعيد تسمع طلقات سلاح فردي . « الفاكهاني » يتنفس في صمت كظيم . هذه هي الحرب ، اذن . صحيح انك واثق بالنصر . صحيح انك مفعم بالتفاؤل القاسي . صحيح انك ما زلت على هذه الارض التي احببت . . . لكن . . . الم تحس بأن قدميك ليستا بذاك الثبات المرتجى ؟ الم تحس بأنك تحدق في شوارع الفاكهاني كما تحدق في تفاصيل صورة ، في تفاصيل ذكرى ؟

ومن لا يعذرك حين تنهمر من عينيك الدموع ؟

الكتابة في زمن القتل

أكتب في السادس من آب . وقد دخلنا الشهر الثالث من حرب فريدة . نحن محاصرون في بيروت . وأنا أسكن الطابق الثامن من مبنى ذي اثني عشر طابقا يواجه البحر . أحد الأصدقاء اللبنانيين ترك لي هذه الشقة الخطرة ، ومضى مع زوجته وولديه الى ضيعة آمنة . أقول « شقة خطرة » لأنني أرى من البحر بارجة اسرائيلية أو أكثر . قبالتي . حين أنظر من الشرفة ، وأمس ، في حوالي السادسة صباحاً ، وأنا أرتشف الرشفة الأولى من قهوتي ، قصفت بارجة مبنى « فرساي » الذي لا يفصلني عنه سوى شارع واحد ، وهدمت طابقين وقتلت ثلاثة من السكان الذين ربما كانوا ما يزالون نائمين ، أو انهم كانوا يرتشفون مثلي قهوتهم الأولى .

لست شجاعا ، لكني أختنق في الملجأ . جربته مرتين فلم أستطع أن أتحمل هواءه الثقيل . كنت أخرج إلى مدخله . وأنتظر انتهاء الغارة . كان هذا في الأيام الأولى . أما وقد استمرت الغارات أربع عشرة ساعة متواصلة فإن مكثي في الملجأ هذه الساعات كلها يعني دفنا حقيقيا . هكذا بقيت في شقة الطابق الثامن . كنت أحس أحيانا برعب حقيقي . وأنا أنظر الى الطائرات هادرة مزمجرة ، بيضاء أو رمادية ، تطلق قنابلها الضوئية وهي مندفعة نحو أهدافها . . وفجأة يرتفع الدخان ، أبيض وأسود ، وفي داخله نار برتقالية متداخلة . .

الفوسفور . أم تراه النابالم ؟

ان مبنى من عشرة طوابق ينهار مثل مبنى ورقي ، ويهبط على بعضه ، ضاغطا البشر وخزانة الملابس وغرفة العرس والمكتبة والصور العائلية مثل مكواة على غضون قماش . . . رأيت رواق « الكرامة » للفن التشكيلي ، حيث كان يقام اسبوعيا معرض فني .رأيته وقد اختفى تماما تحت الجبل المنهار للعمارة التي كان يحتل طابقها الأرضي .

و « الرملة البيضاء » تلك القرية البحرية الصغيرة التي أقمت فيها زمناً . . . هذه « الرملة البيضاء » رأيتها وقد حرثت حرثا ، وتهاوت أشجارها الضخمة محترقة أو مهشمة ، وثمة عمارات انحنت على البحر بفعل القصف، موشكة على الغياب الأخير تحت أمواج المتوسط الهادئة . في « الرملة البيضاء » ترجمت كتاب هنري ميللر عن رامبو : « زمن القتلة » . وسيرة جراهام غرين . وكتبت قصائد ، واعتنيت بوردة غريبة .

هكذا ، إذن ، تفعل طائرات العدو .

في الحروب القديمة ، تحاصر القلاع ، والحصون ، وحواصر المقاتلة ، لكن حصار مدينة يسكنها قرابة المليون ، بسبب ستة آلاف مقاتل ، أمر لم تشهده حرب قديمة ولا عرفته حرب حديثة .

الماء ـ الكهرباء ـ الوقود ـ الدواء ـ الغذاء .

خمسة عوامل تؤدي في مجموعها الى تعطيل دورة الحياة ذاتها . بل لقد أدى واحد منها ، الماء مثلا ، إلى خلل خطير في هذه الدورة . . ألم يمت طفل ذو سنتين ، ظمأ ، بين يدي طبيب بالجامعة الأميركية ؟

وأنا . . من لي بالماء ؟

للوهلة الأولى ، بدت المسألة بسيطة ، فبالامكان الحصول على الماء المعدني في الأسواق ، مع أن الأسر ذات الأفراد والأطفال العديدين استبعدت من الأساس الاعتماد على قناني الماء المعدني . بدأ اللجوء إلى الآبار . أخذت الآبار تشح . علي ، مثلاً ، أن أنقل يومياً

إلى الطابق الثامن وعاء يسع عشرين لترا ، « المصعد معطل طبعا » ثم ابدأ عملية طويلة الأمد في معالجة الماء ، ابتداء من الغلي حتى التبريد حتى التصفية بمصفاة قماش والتعبئة في القناني . أحياناً أعثر بالمصادفة على قنينة « ايفيان » أو « برييه » ، فأتذكر قصة ماري انطوانيت عن الخبز و « الجاتو » حين يشح ماء البئر قد تشرب قطرة من مياه الألب !

اختفى الماء المعدني ، منع الجنود الاسرائيليون ادخال شاحناته . وتتخاطف الأسماء : الكوليرا ـ التيفوئيد ـ الطاعون . المياه ملوثة أو غير صالحة للشرب ، والمزابل تعلو مثل تلال صغيرة تتوجها القطط الميتة . صارت الفئران المتضخمة تدخل من النوافذ . هكذا أخبرني مصطفى الحلاج « الرسام الملتحي » الذي اضطر إلى اعالة هر شهير حفاظا على هناءة نومه . وقال لي ان اطعام هر ضخم في هذا الحصار أقل تكلفة من شراء سم الفئران . كما روت لي طبيبة جزائرية شابة أنها مضطرة الى اغلاق النافذة الوحيدة في شقتها الصغيرة ، والصبر على القيظ البيروتي : خوفاً من دخول الفئران عبر تلك النافذة . . .

الحصار مستمر ، طيران ، قذائف على الصنائع ، أمس زرت منى السعودي ، عصرا ، كانت في الملجأ مع ابنتها . أوصتني أن أبلغ ادونيس بأنها على قيد الحياة . زرت ادونيس . كان متألما جدا . قبل يومين أصابت قذيفة طابقا من العمارة التي يسكنها . خالدة سعيد صامتة بشكل مذهل.

صارت آذاننا بالغة الحساسية ، مرهفة ارهافا مرهقا . لكن الصوت الأكثر دخولا في هذه الحساسية هو صوت الطيران لا سواه .

في الليل المنتصف نستفيق من نومة الأعياء على هاجس ما . أهي الطائرات مقبلة ؟ نرتدي متعجلين ملابس الخروج ونختطف أحذيتنا في العتمة ، ونفتح الباب . . والصوت يقترب في الليل الساكن . . . وإذا بنا في المفاجأة الساخرة ، فالأمر لا يتعدى دراجة بخارية سليطة اللسان . لكن المفاجآت السعيدة قليلة .

فالطيران الاسرائيلي يستمرىء، تحليق الساعات الطوال ، وربما

استمرت غاراته وطلعاته على مدار الساعات الأربع والعشرين . قصف أو كشف . قصف وكشف ، قصف وقصف . والعمارات الشاهقة تسوى بالأرض ، والأجساد البشرية تتناثر . بينما تغطي المدينة سحب كابوسية ، وتحتجب الشمس في الظهيرة ، أو تتبدى لماما ، صغيرة حمراء عينا واحدة لعالم قاس : شمس الحروب .

وأتذكر قصيدة لاراغون ، أو أبياتا منها :

« السماء بأسرها ، تقضقض أسنانها .

أي مطر ، اذن ، تحمله هذه السحابة ؟ » .

نتنفس الهواء داخنا ، مشبعا « فعلا » برائحة البارود ، الهباب يكسو أشجار المدينة ، وأحجار البحر ، وثياب المقاتلين . وحين تغسل شعرك يتصبب منه سخام سائل ، صارت الشظايا من مستلزمات الشوارع ، كالأرصفة أو أعمدة الكهرباء . . . شظايا من كل نوع ، هاون ، هويتزر ، بقايا صواريخ . . .

قبل أيام زرت صديقا شاعرا . قال لي مشيرا إلى زاوية من غرفته : انظر إلى هذه اليد التي طرقت شرفة الفندق .

ورأيت اليد المعروقة القاسية ، يد المعدن القاتلة : رسغ ، وكف ذات ثلاث أصابع مديدة ملتوية حادة . . . أصابع القاتل التي تمتد الآن إلى عنق هذه المدينة المحاصرة .

كانت اليد بقية قذيفة اسرائيلية ، مركونة إلى الجدار كأنها تحفر قبراً . « هيروشيما صهيونية » ؟ أعتقد أن هذا التعبير هو الأفضل .

الفلسطينيون ، في هذه الأيام ، يتصرفون بهدوء عجيب ، ومن المقاتل وهو يحمل سلاحه ذاهباً إلى الموقع ، حتى المرأة وهي تحمل الماء ذاهبة إلى الغرفة أو الملجأ ، يمكن للمرء أن يضع أصبعه على حقيقة صعبة التكشف إلا في الملمات ، وهي ان هذا الشعب يمتلك من الوعي الأساسي والثقة بالتنظيم ما يؤهله لبناء دولة قد تكون أفضل دولة بناها العرب على امتداد تاريخهم . لقد بني معظم الدول العربية

على ارث كولونيالي وأيدي وكلاء . أما الدولة الفلسطينية فهي ضمير شعب شجاع ، ذكي ، مقاتل ، انتزع هويته انتزاعا من المخالب الصهيونية والاستعمارية و « العربية » ، وظل يقاتل حفاظا على هذه الهوية ، من حرب الى حرب ، ومن معركة الى معركة ، دون أن يفقد ، لحظة واحدة ، تصميمه المذهل على بناء حياته بيده ، وكما يريد .

لقد أتيحت لي فرصة الحضور في لقاءات مع قادة فلسطينيين ، سياسيين وعسكريين ، كما كنت أجد نفسي ، دائماً ، في الوسط الفلسطيني الثقافي ، والشعبي إلى حد ما . . . فدهشت لهذه اللغة المشتركة الواضحة التي تجمع الفلسطينيين، في وقت صالح جداً للتنافر والشقاق والانشقاق .

ان المسؤولية الهائلة تجاه هذا الشعب العنيد الأبي ، هي التي يتحملها ، بكل ثقلها ، القادة الفلسطينيون ، وياسر عرفات بخاصة ، الذي قاد صراع الحرب الأخيرة ، رجل دولة من الطراز الرفيع ، ومقاتلاً في الخطوط الأمامية ، وكوكبا في غيهب أمة خذلها حكامها .

عملية الواقع ، وواقعية العمل (على أساس صلد من الايمان الثوري) تكون العنصرين الجوهريين في المدرسة السياسية الفلسطينية .

ان الربط بين فتح أفران خبز جديدة ، وتوفير الذخيرة ، وحسن استخدام العلاقة ، هو مثال بسيط لتجليات هذه المدرسة ذات النظر البعيد ، ثمة أسئلة كثيرة توافرت أجوبتها عملية سريعة :

- كيف تم التغلب على احتمالات الارتباك ؟
- كيف تم الاحتفاظ بالشبكة التنظيمية والادارية ؟
- كيف استمرت الخدمات الاجتماعية والطبية مثلا ؟
- كيف تم الحفاظ على العناصر والكوادر ؟

لقد أعجبني تعليق في احدى الصحف الفرنسية يقول بأن انتصار حركات التحرير لابد أن يمر عبر خسارات حروب عديدة .

وحركة التحرير الوطني الفلسطيني أدركت هذه الحقيقة ، بشكل قاس ، مرير ، لكنه واثق الثقة كلها بالنصر .

كتبت كثيراً في هذين الشهرين (حزيران وتموز) ، ربما أكثر مما كتبته خلال عام كامل . لست أدري كيف استطعت أن أفعل هذا ، وكيف احتفظت بالعصب الهادىء وسط الجحيم . وقد أخجل الآن حين أقول انني كنت سعيداً . لكنها الحقيقة . كنت سعيداً فعلاً . سعيداً بأنني أبرر حياتي وكلماتي . سعيداً بأني أقف وقفة واضحة مع مثل نظيفة في وقت امتحان قاس .

في الأيام الأولى ، ومنذ الرابع من حزيران أخذت أكتب قصائد (شخصية) . . جاءت الغارة الأولى ، على المدينة الرياضية ، وأنا أكتب قصيدة أتتبع فيها مريم العذراء عند ريلكه . مع الأيام بدأت تحولات مريم ، التي بلغت تجليها الأخير في قصيدة « مريم تأتي » التي كتبتها يوم الخامس والعشرين من شهر تموز .

كيف كنت التقط مادة القصائد ؟

كنت كثير الحركة ، قبل أن تكون الغارات الجوية بتلك الكثافة الوحشية . أزور المواقع والمحاور ، أتحدث مع المقاتلين . . أذهب الى مناطق خطرة ، أبيت الليل أحياناً مع المقاتلين الشبان في ملاجىء مظلمة . أدور على الأجهزة الاعلامية ، أتسقط الأنباء هنا وهناك . كنت أشعر بأن حياتي هي من التدفق بحيث أن الموت لن يكون سوى تتويج لها إذا جاء . قبل أن تقطع الكهرباء كنت أستمع الى الموسيقى بانتظام .

والى الشقة أدخلت ثلاث نبتات جديدة .

وعدت الى قراءة التراث الاغريقي .

خلاصة الأمر أنني حاولت جهدي ، قهر حالة الحصار . ربما

نجحت في محاولتي طيلة شهرين .

لكن الحصار يزداد إحكاماً .

والتحريض أخلى المكان لفعالية مختلفة .

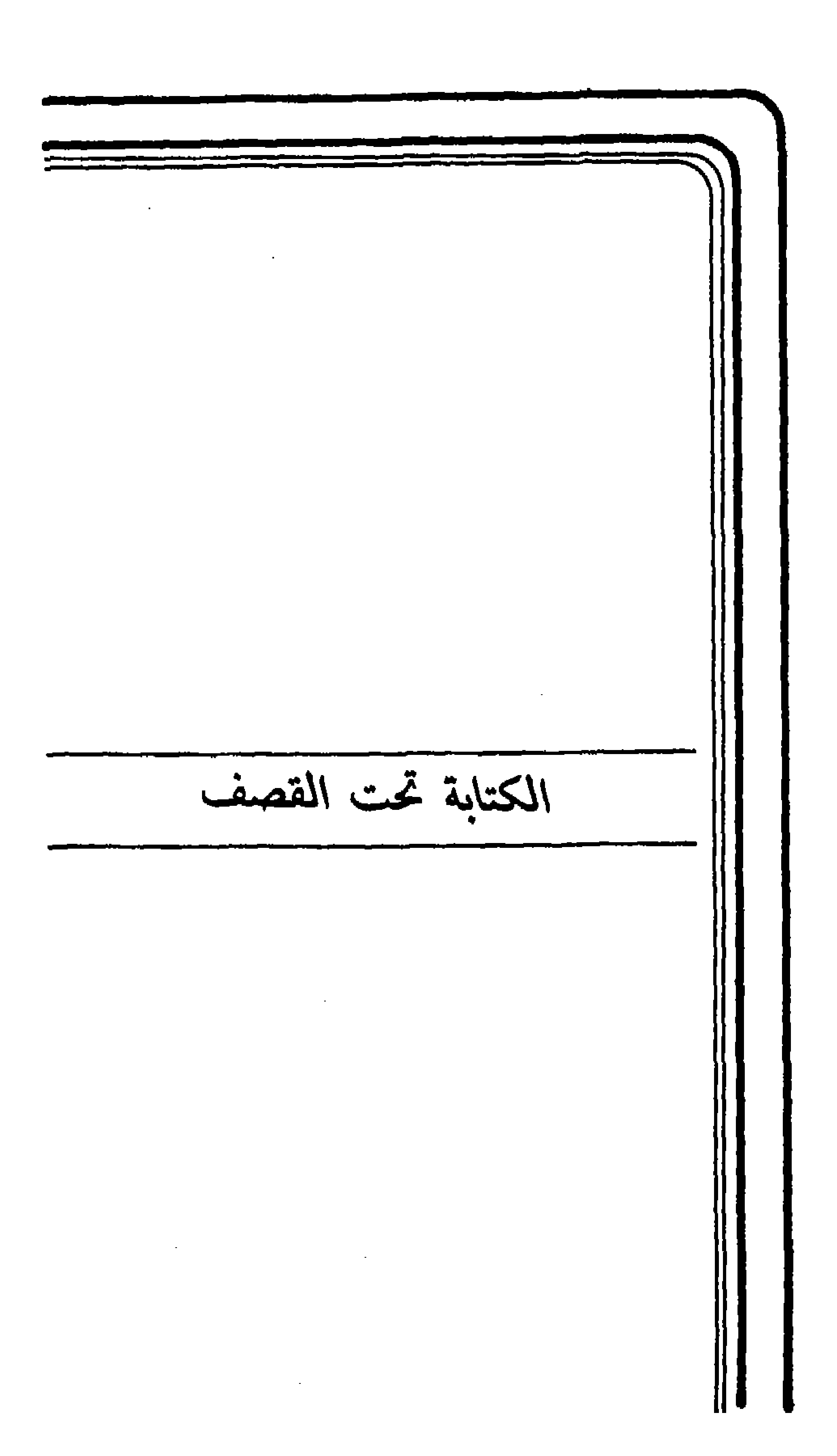
وأنا ، في النهاية ، أو البداية ، أكتب شعراً .

ما الذي أفعله الآن ؟

أفكر كثيراً بالمستقبل . ومن يدري . . لعلي كاتب رواية ، إذا نجوت من الغارات وقذائف البوارج والسيارات المفخخة ، ولعلي سأصمت طويلا . . . أم ان زمن القتل سيغلق شفتي الى الأبد ؟

1982/8/6





الكتابة تحت القصف

بعض التعابير يبدو غير ذي معنى .

ان تعبيراً مثل « الكتابة تحت القصف » كان يبدو لي ، رومانسياً ، متكلفاً ، مبالغاً في عاطفيته ، ولهذا كنت استبعده كلما قرأته . وحتى في بيروت المحاصرة حاولت أن أبقيه بعيداً عن التشكل .

لكني ، بالتدريج ، وجدت نفسي أكتب فعلاً تحت القصف ، قصائد أو مقالات أو خواطر ، ووجدت زملاء لي في الثقافة والصحافة يفعلون الأمر ذاته . في مكاتب « النداء » القريبة من « البربير » وجدت رفاقاً يكتبون مادتهم على ضوء الشموع ، بينما طيران العدو في السماء المكفهرة ، والقذائف تقترب شيئاً فشيئاً من منطقة الصحيفة .

ونشرة « المعركة » التي يصدرها ، يومية ، الكتاب والصحافيون الفلسطينيون واللبنانيون والعرب ببيروت ، تعد موادها في مبنى تواجهه باستمرار بارجة اسرائيلية ، ويتعرض « محيطه » الضيق الى القذائف بصورة يومية تقريباً .

والاذاعيون الذين يكتبون مواد إذاعة الثورة ، هم أيضاً في مبنى مكشوف ، بلا ملجأ .

ومجلة « الحرية » تتساقط حولها القذائف باستمرار ، بل لقد حفر صاروخ ، حفرة واسعة في سقف ملجأ مجاور ، ولم يكن في الملجأ أحد

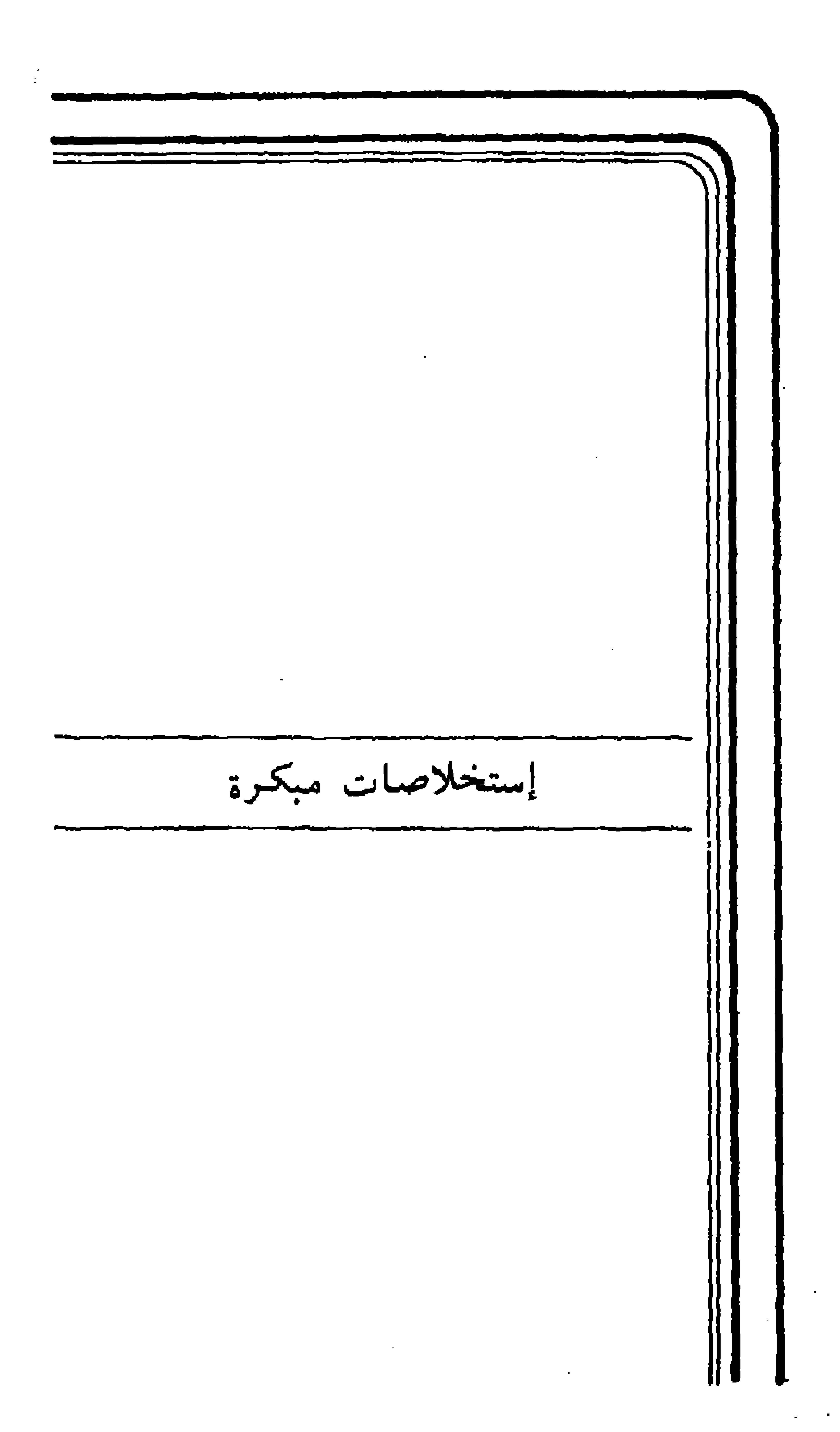
لحسن الحظ .

وكـالة « وفـا » كـانت ذات النصيب الأوفـر من القـذائف والصواريخ ، ولطالما اضطر محرروها الى تبديل مكان عملهم أكثر من مرة في اليوم .

هذا الصباح (التاسع من آب) كان علي أن أكتب مادتي الاسبوعية لمجلة « الحرية » . . . استيقظت مبكرا في حوالي الخامسة ، آملاً في أن أتم المادة في حدود الساعة العاشرة وأسلمها الى المجلة بعد نصف ساعة.. في السادسة ، بدأت القذائف من المدفعية والبوارج . أنا أواجه البحر . أصوات الانفجارات ترهقني . مرتكزات الكتابة تضطرب ، وأحس بالعجز ، أحس بالوحشية البائسة وأنا أنظر إلى الأوراق البيض أمامي . علي أن أغادر شقتي إلى مكان آخر ليس سوى الملجأ من مأمن لكن . . . من يستطيع الكتابة في ملجأ ؟

أخيراً انتقلت إلى مبنى آخر بعد مسيرة ربع ساعة ، بينما كان طيران العدو يهدر في سماء المدينة .

1982/8/9



إستخلاصات مبكرة

لثمان وأربعين ساعة متصلة ، ظل القصف المدفعي والصاروخي الصهيوني يدفع سمه في الشرايين . في الليل تحاول الرقاد ساعة ، لتجد نفسك اما مستيقظاً عليه ، أو متقلباً في كابوسه . وفي النهار تريد أن تفعل شيئاً ، أن تكتب شيئاً مثلاً ، فلا تترك لك الانفجارات سبيلا وتعجب للعالم الصامت ، تعجب للدول وللمؤسسات الدولية وللأشقاء والأصدقاء : ألم يبلغهم هدير المدافع ؟

أمس تضررت السفارة السوفياتية ببيروت نتيجة قذيفة أو قذائف .

أمس أيضاً تعرض مستشفى « عكا » للقصف ، وسقط ضحايا بينهم أطفال .

و « الحمرا » ذاتها غدت هدفا .

هل حدث في التاريخ ، ان استفردت حركة ثورية ، كما نستفرد الآن ؟ وما النتائج التي يمكن أن تترتب على استفراد كهذا ؟

من نافلة القول أن نذكر أن هجمة مهما كانت بربرية لن تبيد شعباً مكافحاً ، حتى إبادة الهنود الحمر استغرقت عشرات السنين . فهل يتصور الأعداء والمتفرجون والشامتون أن ما يجري الآن سيضع النهاية

السوداء للشعب الفلسطيني ؟ ومن أين استقوا هذه القناعة ؟

بعيداً عن التفاصيل الراهنة ، أحاول أن أضع يدي على استخلاصات مبكرة . (القصف المدفعي عاد هذه اللحظة في الساعة السابعة والثلث من صباح الثاني والعشرين من حزيران) .

- ستكون الثورة أكثر تجذرا ، وأكثر قدرة على الحركة .

- سوف تولد « كالعشب » العشرات من التنظيمات والحركات الجديدة .

- هذه التنظيمات والحركات الجديدة سوف تستخدم وسائل غاية في القوة والقسوة . للحفاظ على وقدة الثورة متأججة تحت الرماد .

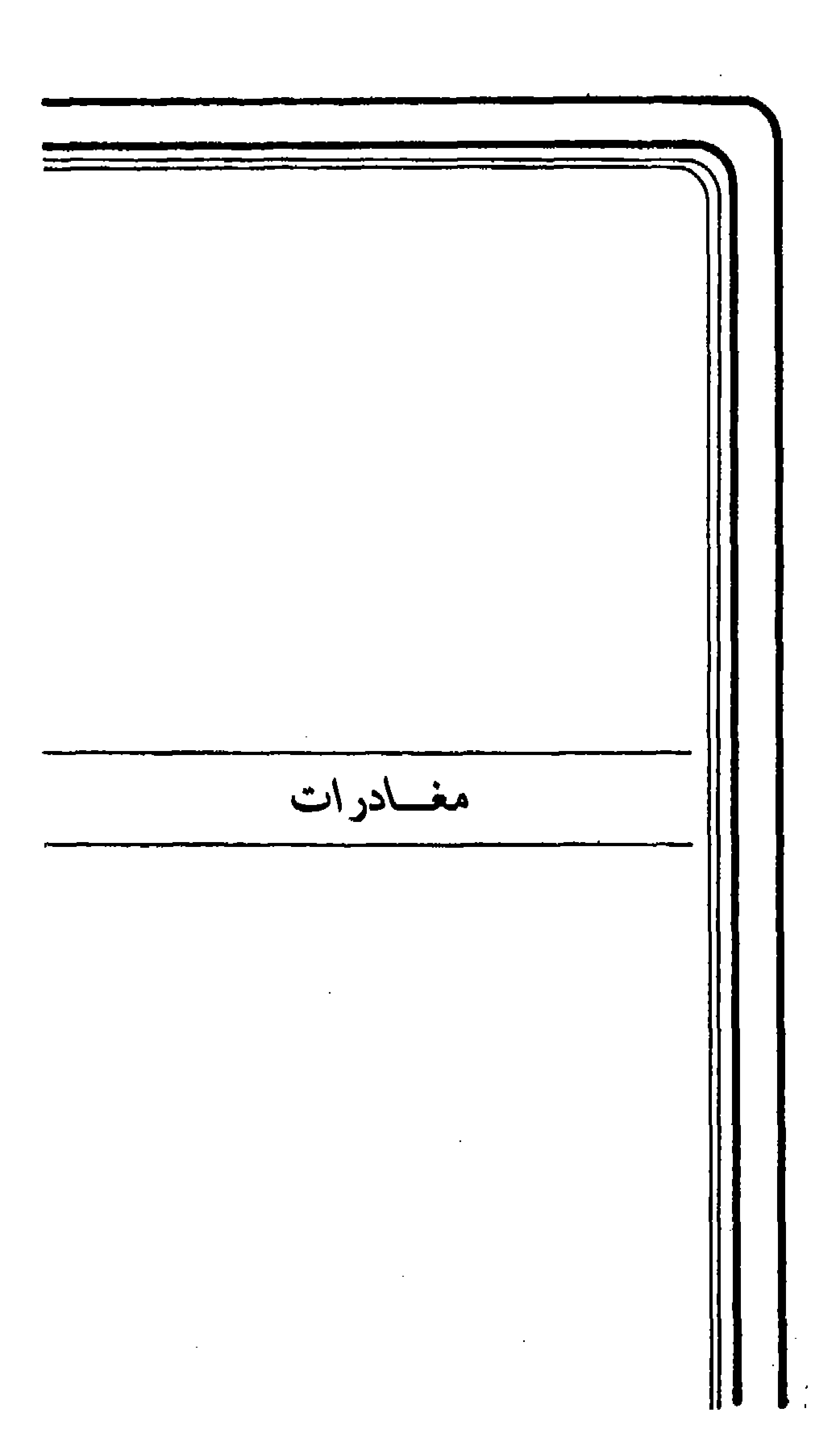
- سوف يدفع الحكام المتواطئون والمتفرجون والشامتون ثمنا غاليا .

- سوف تنتشر فلسطين على امتداد الخارطة العربية ، وتفتح ساحات عديدة ، ولن تسمح لأحد باستفرادها ، أو الهيمنة عليها ضمن معادلة أو معادلات ما .

- سوف تتغير صيغ التحالفات تغيرا عميقاً .

- علائق الثورة ستكون مع التنظيمات الشعبية لا مع الأنظمة .

- سوف توضع الخبرة التنظيمية العسكرية في خدمة الحركة الثورية على امتداد الوطن العربي .



مغـــادرات

وفي هذا المبنى الآخر ، شرعت أكتب تحت القصف !

ثمة أصدقاء يغادرون .

وبعد كل ليل طويل ، مرهق بالانفجارات ، تسير في المدينة التي لم تعد غير شارع واحد (الحمراء)، ومقهى واحد (المودكا) . . . نسير ، متلفتاً ، متسائلاً ، وتسمع أن صديقا قد غادر ، وخزة هينة في القلب ، ودمعة محتسبة .

هذه النبتة الشرفة ، هل تغادر ايضاً ؟

من يمنحها قطرة الماء وأغنية الخضرة ، من سيكون طرف الحياة الآخر معها ؟

من سيدللها ويناغيها ويمد أوراقها ؟

من سيقول لها أنت جميلة ؟

الأصدقاء يغادرون في صمت .

والأماكن الأليفة تسكنها وحشة الحروب المستنفدة .

هذا الشارع يغادر بأكمله . لقد تحول الى ركام. كتل من الأسمنت ، وقضبان حديد ملتوية ، أوراق ، وملصقات شهداء نصف محترقة . أثاث هشيم . إنك لا تستطيع حتى التقدم خطوات

فيه فهناك من يحذرك من احتمال انفجار لقنبلة عنقودية لم تنفجر بعد .

لقد غادر الشارع اذن . .

اللغة أيضا تغادر .

ان لغة الحرب ، وما قبل الحرب ، تغادر .

وعلى الناس ، وعليك أنت ، صياغة لغة جديدة ، لغة المداراة والمواراة والمناورة . . .

لتتعلم ، إذن ، كيف تلف وتدور ، كيف لا تسمي الأشياء بأسمائها ؟ وكيف تلبس أناسا غير لبوسهم ؟ . . لكن ، هل بمقدورك ذلك ؟

انها الساعة السابعة من الصباح (يوم العاشر من آب) ، كل شيء هادىء بعد أربع وعشرين ساعة متواصلة من المدافع والطائرات والحرائق .

لتنظر قليلا من الشرفة .

البحر مغبر . الشجرة العالية شاحبة الخضرة . كومة القمامة عند الرصيف ما زالت تحترق .

يمر فتى يحمل سلاحه متجها نحو البحر .

وتتساءل بمرارة : هل السلاح مغادر أيضاً ؟

الثاني من أيلول (أم تراه الأول ؟) . . . . وعليك ان تغادر بيروت مع الدفعة الأخيرة من المقاتلين . . على آخر سفينة .

المتاع قليل : جعبة عسكرية، وحقيبة صغيرة من حقائب الرياضة.

الجعبة العسكرية تضم كتبك المطبوعة ومخطوطات قصائدك الجديدة، والمخطوطة التي كنت تهيء لاصدارها ديوانا. أما الحقيبة الصغيرة فانها تخفي ملابسك التي غدت اسمالا بعد كل الدعك والفرك. لكنك تعتز بكنز ما، كنز سوف تقلبه متأنيا حين تهدأ خطوة المحارب : المجموعة الشعرية لبازوليني.

منذ الصباح الباكر تقف عند ساحة « أبو شهلا » الشاحنات تأتي في حدود الساعة العاشرة. تصعد مع متاعك القليل لتكون في الشاحنة الأخيرة. فجأة تسمع من تناديك وتقدم لك كوفية. . تقول لك تلثم. . الشوارع مقفرة.

والناس أغلقوا عليهم منازلهم.

لقد مضى المقاتلون، فمن سيمنح الناس الأمان والثقة والجبهة العالية ؟

ليس في الشارع من يودع.

لقد انتهى الراحلون والمودعون، ودخلت المدينة نفق الانتظار الشائن.

عند بوابة المرفأ كان « المارينز » مشاة البحرية الأميركية.

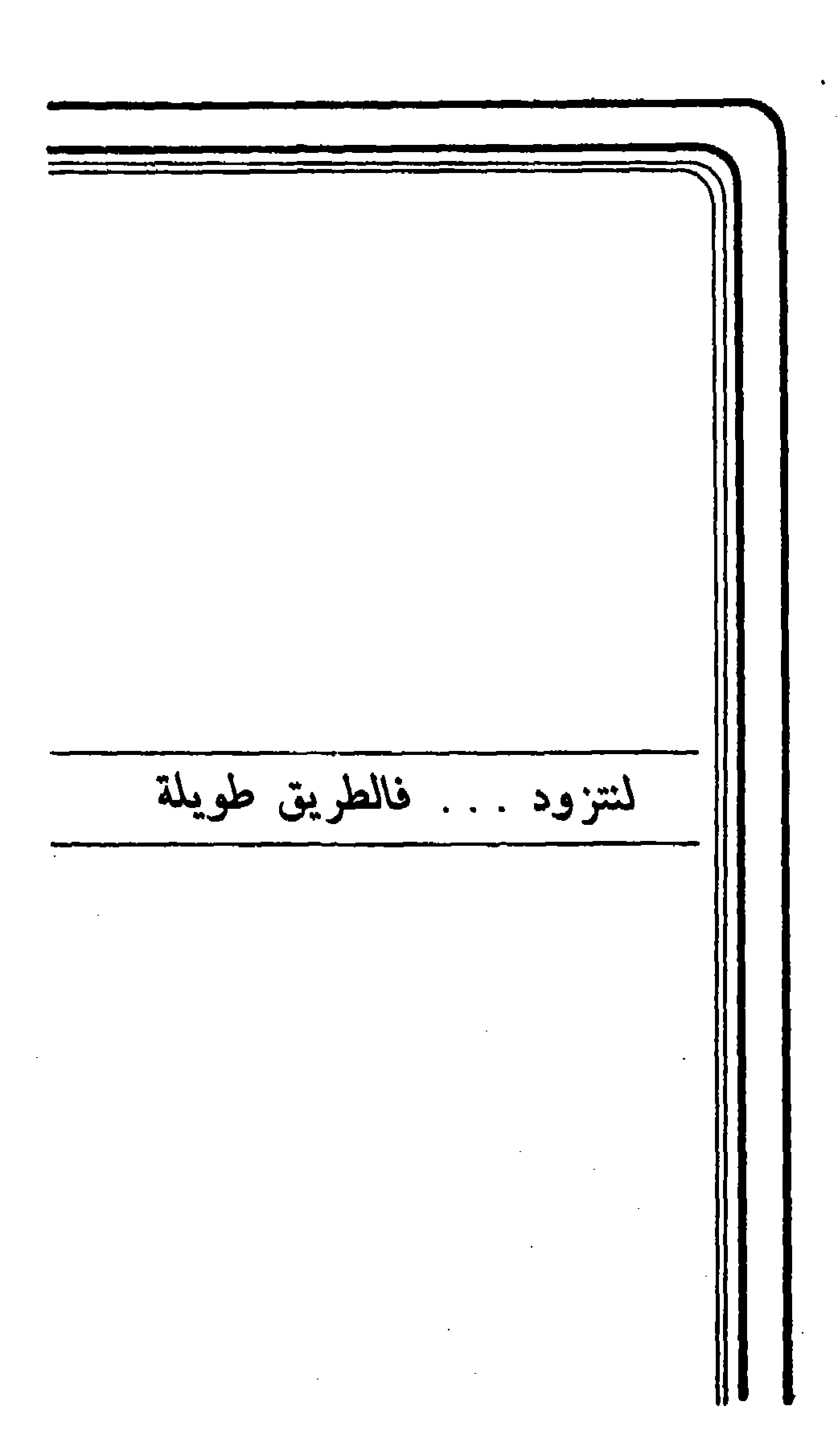
الشاحنة التي أنت فيها تدخل من البوابة. وينتابك الاحساس الغامض لحيوان يدخل الشرك المنصوب.

انه الثامن والعشرون من أيلول (سبتمبر) ، عند الساعة التاسعة ، وليس بعيداً عن الطائرة في مطار صنعاء الدولي ، تتسلم جواز سفرك الذي احتفظت به سلطات المطار منذ هبوطك هناك . مروراً إلى عدن .

المغادرات هي المغادرات .

لكن المحطات النهائية تختلف .





لنتزود . . . فالطريق طويلة

اليوم هو الخامس والعشرون من آب. قبل يومين انتخب ثمانية وخمسون نائباً لبنانياً، رئيساً جديداً لجمهوريتهم. عليّ الآن مغادرة بيروت ضمن قافلة عسكرية تقصد الشام. حتى اليوم لا أعرف موعد إنطلاق القافلة، وأي طريق تسلك، طريق بيروت ـ دمشق الدولي، أم طريق البحر الى اللاذقية؟ لكن هذا لا يهم كثيراً.

ما يهمني، بإلحاح، أن لا أظل دقيقةً أكثر تحت الاحتلال الاسرائيلي، وألّا تمحي (من الذاكرة؟) الصورة البهية لبيروت. أريد أن أحمل معي المرآة وهي لم تتشرخ بعد. ومن برج البراجنة الى رأس بيروت الى باب أدريس ستظل المتاريس التي خلفتُها عاليةً، أبيةً، ينبت عليها الشجر، ويكمن خلفها مُقاتلةٌ بملابس بيضاء رهيفة.

أتيت بيروت في زورتي الأخيرة، يوم الخامس عشر من أيار، وفي الرابع من حزيران كنت في الفاكهاني حين بدأ الاسرائيليون غاراتهم على المدينة الرياضية، ومذّاك وطنت نفسي على البقاء في بيروت المناضلة، مهما صعبت الظروف وساءت. أكنت أحب بيروت أم أحب نفسي وأنا أتخذ هذا القرار مطمئناً الى سلامته؟ ليس سهلاً عليّ أن أعرض الأمر على هذه الصورة، فالتداخل بيني وبين بيروت يمتد بعيداً في الزمن، وعميقاً في الروح. ومنذ القصيدة الأولى التي نشرتها في مجلة بيروتية حتى معاينتي الجراح الفاغرة للمدينة وهي تدفع ثمن ما

اختارت، أقول منذ تلك القصيدة الأولى، وحتى اليوم، ظل لرمز بيروت ملمس شخصي جداً، شخصي، وأثير. ألم يكن محمود درويش يلمس الحقيقة حين قال :

كأننا أسلافنا

نأتي الى بيروت كي نأتي الى بيروت. . .

أكنت ببقائي في المدينة المحاصرة أردّ لها شيئاً من فضل عميم، أم كنت أردّ عن نفسي (ولو الى حين) ذلك الخراب الذي يتهدّدنا في عالم عربي لم تعد فيه بيروت التي نحبّ ؟

عند باب إدريس، وقرب الستاركو، حيث كنت أمس، وللمرة الأولى منذ الحرب الأهلية، حاولت أن أتبين شواخص المكان، أيام كنا في هذا المضطرب بين المقاهي والمكتبات ودور النشر، فلم ألتقط إلا اللافتة المهترئة لصحيفة « لسان الحال » القديمة. . . وأردت دون جدوى أن أعيد تركيب الأمكنة. . لا فائدة. أهكذا ستكون بيروت يوماً ما ؟ أتغيب عنّا، ولو في صورة أخرى، فلا نعود نتبيّنها ؟

■

هل فعلت شيئاً طوال تلك الأيام الصعبة ؟

أقول : نعم، لكن بصوت خفيض، فماذا بمقدور المرء أن يفعل وسط الدمار الهائل، والانفجار المستديم ؟ ماذا بمقدور المرء أن يفعل بينما الحياة مصادفة محض ؟ ماذا بمقدور المرء أن يفعل وكل نفحة هواء منتفخة بالبارود ؟

الحصار الذي يذكّر بالحروب القديمة يزداد وطأة مع الساعات. كنت أغلي ماء « البئر » وأصفيه، وأعجن دقيقاً (فرنسياً !) وأخبزه في مقلاة صغيرة أرغفةً عجيبة. . خلّف لي أحمد الزين مؤونة صندوق بطاطا، وزق زيت زيتون من « الكورة ». . . وثمت فودكا فنلندية رخيصة جيدة في مخزن « سمث » القريب. أحياناً أسمع جاك بريل

وشوبان. أقرأ في « لسان العرب »، وفي كتاب توسيديس « حرب البلوبونيز » الذي يعود الى القرن الرابع قبل الميلاد. أحاول أن أقرأ شعراً فأفشل. وأحاول ان أكتب شعرا فيكون فشلي أشد. لكن المرء يألف، « خُلقت ألوفاً » يقول المتنبي. هكذا دخلنا في إلفة مع الحصار. لم يعد الحصار كابوساً خارقاً يغلق علينا المنافذ كلها. . وبالتدريج عدت الى الكتابة. . الكتابة التي بدأت يومية في « النداء »، وأسبوعية في « الحرية » ومتقطعة في « العودة » و« المعركة » و« السفير ». كتبت ايضا قصائد ليس لي الآن حق الحكم عليها، لكني أعتزّ بها شهادة وذكرى، ومن يدري . . فلعلني معتزّ بها شعراً !

اليوم أيضاً صدر العدد الستون من « المعركة »، العدد الأخير، وهو يحمل نصاً لي. . . أنا مرتاح الضمير، فلقد أسهمت في العدد الأول كذلك. كنت واحداً من عشرات المثقفين ببيروت المحاصرة الذين إستطاعوا أن يتغلبوا، ولربما بسرعة قياسية، على إرتباك الاجتياح والحصار، وأبقوا شعلة الثقافة المكافحة متقدة. .

ومن يدري فقد يدرس الناس، في أحد الأيام، هذه التجربة المريرة الفريدة للمثقفين العرب في معركة بطولية، وقد تستلهم الشبيبة والأجيال الآتية من وقفتنا، الكثير أو القليل، لكنها ـ على أي حال ـ تجربة لا يمكن أن نمر بها سرعين.

كنا نكتب تحت القصف فعلاً، في مبان بلا ملاجيء، وعلى ضوء الشموع، عيوننا محتقنة من السهر، وأيدينا ترتعش من رهق ونصب، وشفاهنا يحرقها الظمأ، ورائحة أجسادنا عرق وطين.

وأتذكر زملاء لنا إستشهدوا.

■

عند المرفأ يتوافد المودعون، بعضهم صامت، والكثرة صاخبون،

الرشاشات والقذائف ترقص رقصتها الأرضية ـ السماوية، وفتاة تنشد في وقع المرثية أغنية حماسة للمقاتل الذي سيعود. فتيان لبنانيون مبتهجون بسلاحهم الجديد يمنحون إستخدامه هذه الصفة المميزة، اللبنانية، التي تعرف دائماً كيف تترك للمتعة ساحة. وتبدأ مباراة مخيفة بقذائف « الأنيرغا » على مبعدة أمتار فقط. جنود فرنسيون يعجبون لدقة الاصابة في مباراة اخرى للتهديف بالرشاش على زجاجة وضعت على نشز قريب. يبدأ توزيع « المعركة »، وينشغل الحشد قليلاً بالنظر السريع. تعود الفتاة الى نشيدها على إيقاع منتظم من الرصاص المنطلق. خلفنا، يستعد فدائي ملثم لاطلاق قذيفة « آر. بي. جي »... يناديه الأقربون : ماذا تفعل ؟ أرفعها قليلاً. أما هو فكان يعبر عن سخريته بخوفهم. وتنطلق القذيفة تاركة بقعة رمادية ـ بيضاء في سماء صافية.

الشاحنات تقترب، وتسري حركة إستعداد بين الجنود الفرنسيين واللبنانيين في الجانب الآخر من المتراس.

■

بعد ساعات. يكون هؤلاء الثوريون الملثمون في عرض البحر « الطليق ؟ » ولسوف يرفعون اللثام ليستنشقوا، بعد ارهاق، هواء المتوسط.

لقد تركوا وراءهم أرضاً منحوها بدم الشهيد إسماً باقياً، وخلفوا بين ركام المخيمات أحبةً وأقربين، وساروا، على مضض، رافعين رايات الثورة وبنادقها في زمن الارتكاس.

المعسكرات التي تنتظرهم، وضعت منذ زمن، لوائحها الشرسة والى أن تنفتح باب، سيظل هؤلاء الملثمون، وهم عز الأمة وفتوتها، يكظمون الغيظ، ويكزّون على الأسنان.

■

وها نحن أولاء، كأسلافنا الشعراء القدامي، نقف على الأمكنة، نقف ونستوقف، ونذكر الأحباب والمنازل.

مقهى « أم نبيل » الذي غدا (فعلاً) تراباً تسفوه الرياح. مقهى « التوليدو » وقد غدا ركاماً. مكتب ماجد أبو شرار. وكالة وفا. قاعة عز الدين القسام. مكتب مجلة « الطريق » بالبربير، والعديد العديد مما كان يشكل عالماً متكاملا.. الى أين سنمضي ؟

المقاومة الفلسطينية، حتى ونحن بعيدون عنها وفي أقطارنا، كانت تشكل حصانتنا الأخيرة من أدواء تتهددنا، وأوضار تحاصرنا كان عنادنا في وجه القمع والفظاظة بضعةً من عنادها. وهي ملتجأنا الكريم حين يلحّ العسف ويستشرس.

أجيال من المثقفين العرب أقامت إرتكازها وتوازنها الصعب على جذع المقاومة. لقد أنقذت المقاومة الفلسطينية هذه الأجيال من المستنقع المحيط، وضمنت لها إمكان الابداع والاستمرار والحفاظ على علو الجبين وكرامة الفرد الحر. فماذا نفعل الآن ؟

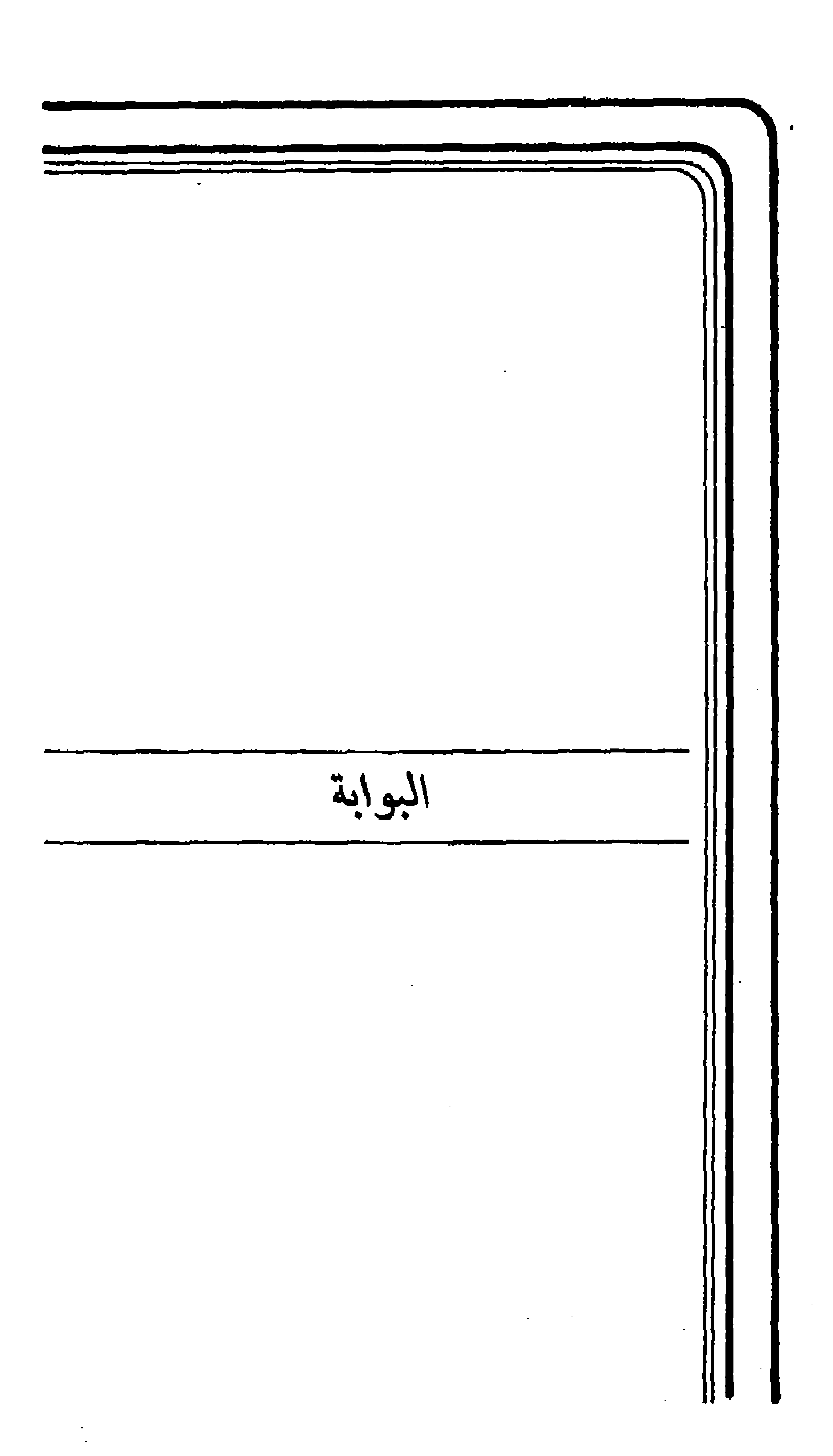
لن أكون متساهلاً في التفاؤ ل.

لكن لي ثقة عظمى بأن ما حدث منذ الرابع من حزيران لن يمر بالسهولة التي يرجوها العدوّ. أما نحن، فلنتزود للطريق الطويلة.

لنعض على شفاهنا حتى تدمى..

حتى ينطلق النشيد.

بيروت ـ **1982/8/25**



البوابة

عند بوابة من بوابات « المرفأ » إرتفعت متاريس من أكياس الرمل. في الجهة الأخرى من المتراس جنود فرنسيون ولبنانيون، وفي الجهة الأولى فلسطينيون. لكن فلسطينيي هذه الجهة من المتراس عجيبون. إنهم من أقطار كثيرة وبلدان عديدة وقارات متباعدة، إلا أن السيماء واحدة : فلسطينية.

هذا الجانب من المتراس، جانبنا، صار ملعباً. قذائف «الآر. بي. جي» تنطبع في السماء رمادية بيضاء و«الأنيرغا» تثير في المرتفع الرملي نقع الحروب القديمة، والـ 127 مم يلعلع في جو يصعب أن يلعلع فيه سلاح لشدة ما تتبارى الأسلحة وتتسابق، وثمة فتيات يتدربن على الدكتريوف، ومباريات في التهديف على قناني البيرة، ورقص وغناء وقصائد ومصورو تلفزيون وإذاعيون من أطراف العالم الواسع، وامرأة تحمل باقة زهور، وعشرات « الكلشنات » تنطلق، منغمةً مع الأغنية أو الرقصة.

والفلسطينيون ماضون في صنع أنفسهم، ماضون في صياغة هذه الطينة، ماضون في بلوغ حالة البلور الصافي. ومن أطلال برج البراجنة حتى هذا المتراس الملاصق للبحر، إمتد خيط خفيّ، عصيّ على التناول، إمتد جرح ينكأ ولا يبرأ، إمتد جوهر للاشكال، إمتد هؤلاء الفتيان الشيوخ الذين لم يعرفوا الأرض إلا مسافات للركض،

ولم يعرفوا السماء إلا محسوبة بطلقات الإنارة، ولم يظفروا من الشقيق بتحية لقاء أو وداع.

الى أين تمضي السفن ؟

الى أين تمضي الشاحنات ؟

الى أين يمضي هؤلاء الفتية المتلفعون بكوفياتهم ؟

إنهم ماضون، عبر الرحلة الطويلة، الى الأرض التي صنعوها هم، الأرض التي خلقوها كهيأة البلور أو أصفى، ماضون الى فلسطين العجيبة.

1982/8/25

شمس المتوسط

كانت شمس المتوسط حادة قرب المرفأ. وكان على الملثمين الذين نقلتهم شاحنات أميركية جديدة من ساحة حبيب أبو شهلا أن يخففوا قليلا من وطأة اللثام كي يتنفسوا بحرية أكثر، ويشربوا جرعة ماء. المودعون قليلون في هذا اليوم الأخير. رصاص التوديع متقطع. فقط عند الحمام العسكري والسوديكو أطلق إثنان الرصاص من رشاشيهما، وهما في عصبية واضحة، ثم هرولا مختبئين، بمجرد إنهاء الواجب. الوقت أشد صعوبة وتعقيداً الآن. إنه الأول من ايلول (سبتمبر) آخر مغادرات المقاتلين، واليوم الأول من الترقب المؤلم لمدينة محاصرة هجرها أكثر حماتها. في بوابة المرفأ كان مشاة البحرية الأميركيون (المارينز)، وفي أعلى بناية مصرف مهجور يطل على المدخل، تمركزت عناصر من الجيش اللبناني. كنت في الشاحنة الأخيرة مع عدد محدود من مقاتلي الجبهة الديمقراطية. قفزت من الشاحنة غير بعيد عن الرصيف، ولم تكن القفزة بالصعوبة التي تصورتها. سرنا خطوات لنجد أنفسنا أمام طاولة يجلس خلفها ضباط لبنانيون وسط تجمع واسع من العناصر. كان هناك من يسأل عن الاسم والعمر ويسجل المغادرين. قلت له ان إسمي احمد سعيد زكريا من مواليد 1934 . كنت أتوقع في أي لحظة أن يصدر ضابط من (المارينز) امره، فيحدث ما يحدث. لكن الأمور سارت « على ما يرام ». . ودخلنا السفينة. في المدخل كانت الأسلحة الفردية تكدس.

في دقة واضحة. ومقاتلا بعد آخر تدخل المجموعة، السفينة عزلاء من سلاحها العزيز، ضمانتها الوحيدة عبر كل تلك السنوات وهذه الأيام. ثمة شعور بالخذلان لا يستطيع المرء أن يكتمه.

●

والبارحة، البارحة فقط، كنت في فندق كافالييه (الفارس) . . . ديفيد هيرست مراسل « الغارديان » اللندنية يتوسط الى جانب وليد جنبلاط مائدة عامرة في أقصى المطعم. مراسل « لومانيتيه » يستعد لاحدى جولاته التي لا تنتهي والى جانبه دليلته البعلبكية ذات الحركة السريعة، صحافيون ايطاليون ومصورو صحافة ووكالات أنباء. موظفو دوائر دولية. مناضلون يستعدون للرحيل او الاختفاء. عائدون الى بيروت الغربية بعد أن أوشك « الغرباء » على مغادرة المدينة الى غير رجعة. دبلوماسيون جاؤوا من بيروت الشرقية ليلقوا النظرة الأخيرة على الأسطورة التي تغيب في مثل هذه البساطة العجيبة. اصدقاء لبنانيون اتوا مودعين. محمود درويش ترك الفندق منذ يومين بعد ان عاد التيار الكهربائي الى شقته. قال محمود : أنتظر فتح المطار. لن أغادر على سفينة، فالبحر يشعرني بالمرارة، لا أريد ان يقول الاسرائيليون انهم رموني في البحر.

منى السعودي وطفلتها جاءتا مودعتين. الطفلة جلست الى البيانو تدندن غير عابئة بشيء. قالت « باولا » : سأكون صباح غد في ساحة أبو شهلا لأصورك بالملابس العسكرية. هذه الملابس العسكرية جمعتها بطريقة فريدة. مررت على « الحمرا سنتر » حيث كانت « فلسطين الثورة ». المبنى خال موحش، وجدت بدلة فأخذتها بكل بساطة، الحزام جاء به صديق. الكاسكيت إشتريته من أحد باعة الرصيف بعشر ليرات. الجعبة إشتريتها أيضا بأربعين ليرة. أما السلاح فكان بالمجان في تلك الأيام.

البارحة، إذن، كنت في فندق كافالييه.

واليوم، في هذه الظهيرة القائظة، في الساعة الثانية عشرة، تدخل السفينة التي ستنقلك الى ميناء طرطوس السوري. السفينة قبرصية يونانية. إسمها « شمس المتوسط ».

●

السفينة والساحل السوري.

الكلمات تعود بك الى ذكرى بعيدة. بعيدة حتى كأنها لم تحدث البتة. لكنها حدثت فعلا وحددت مسار حياتك، ووهبته معنى ظل أساس شخصيتك وجوهرها.

كان ذلك عام 1957 والعراق مغلق الأبواب والنوافذ. لكنك فتحت نافذة آنذاك. نافذة واسعة.

تلك سنوات الصبا والمغامرة. ومن الساحل السوري ركبت البحر الى ميناء أوديسا، لتستقل القطار فتبلغ موسكو مشاركا في مهرجان الشبيبة. كانت الدهشة مفتاحك الى العالم. من الموجة التي ترتفع حتى تعلو حاجز السفينة. الى صورة « لينين »، الى هدأة الليل على سطح السفينة، حين يجتمع البحارة حول عازف الأكورديون، مغنين راقصين.

ها هي ذي الذكرى تعود بكل قوتها. انك تستعيد الآن حتى اسم السفينة التي حملتك الى اوديسا منذ خمسة وعشرين عاما. كان اسم السفينة « جروزيا ».. هل « تقاعدت » السفينة الآن ؟

لم يكن البحر هادئا. وأصيب كثيرون بدوار البحر. أنت لم تصب. ربما لأنك من مدينة تقوم على الماء. وفي أوديسا ارتقيت السلالم الشهيرة. وتذكرت ايزنشتين ومشهد السلالم في « المدرعة بوتمكين ».

السفينة والساحل السوري.

وها أنتذا، بعد خمسة وعشرين عاما، تنطلق الى الساحل السوري، لكن لا كما انطلقت منه في تلك الأيام العذبة. انت الآن في

ايام العذاب. وهو ليس عذابك وحدك، انه عذاب امة.

●

« شمس المتوسط » تستعد للاقلاع. في « المقصورة » كان رفيقك « ابو نبيل » الذي نجا بأعجوبة حقيقية من محاولة إغتيال قبل أسبوع، وظل راقداً في المستشفى، وكان عليه أن يترك المستشفى والمدينة قبل أن تلتئم جراحه الخطيرة. لقد وصل الى « شمس المتوسط » في سيارة إسعاف ملفوف الرأس واليدين بالضماد. انه صامت. عيناه فقط تدوران. لقد إخترقت احدى الرصاصات خده. لسانه متورم. حتى تناول السوائل كان يسبب له الما فظيعا.

« شمس المتوسط » سفينة ركاب جيدة التجهيز.

على سطح السفينة يتبدى مشهد عجب : المقاتلون منتشرون في كل مكان. طائرة هليكوبتر تقوم بدورية قرب السفينة. من البعيد تبدو حاملة طائرات هليكوبتر. « شمس المتوسط » تبدأ رحلتها في حوالي الساعة الثانية بعد الظهر. ربما للمرة الأولى في حياة « شمس المتوسط » تجد نفسها « متوسطة » بين سفينتين حربيتين ترافقانها عن يمين وشمال احداهما فرنسية، والأخرى اميركية. أحيانا تقترب السفينتان الحربيتان من « شمس المتوسط » إقترابا مدروسا، بحيث لا تدعو الحاجة الى استعمال النواظير. ثم تبتعدان شيئا فشيئا بعد ان تتأكدا من ان كل شيء « على ما يرام ». حين تبتعدان، وتكتسبان لون الرماد الأبيض اللامع، يفكر المرء بأسماك القرش.

ان أمامك الصورة الفعلية لكل ما جرى ويجري : دولتان كبيرتان ترسلان سفنهما الحربية وحاملات الطائرات كي تطارد في البحر الواسع سفينة ركاب مدنية تحمل مناضلين عزلا من السلاح. بعد ان أرسلتا الجنود والدبابات لمطاردة هؤلاء المناضلين حين كانوا يحملون السلاح.

الأفق بلا مفاتيح. وأسماك القرش تلاحقنا.

●

في جانب من سطح السفينة ، كان الفقيد العميد سعد صايل (ابو الوليد) وأبو اياد وأبو موسى ، وعدد محدود من رفاقهم . وكان الحديث يدور عما جرى.

قال أبو الوليد : كنا قادرين على الصمود بين اسبوعين الى ثلاثة أسابيع أخرى. لكن الضحايا ستكون أكثر ، والنتائج أقل . لقد ظل الوضع على حاله منذ التدخل، حتى الحصار. لم تدخل عناصر جديدة كي تحدث تفاعلات تنتج عنها أمور جديدة. وأنا اعتقد أن شارون كان يريد رؤ وسنا جميعا . رؤ وس المقاتلين جميعا. هذا الأمر لم يتحقق له . ومن هنا نفهم لماذا كان يستخدم الطائرات لمطاردة الأشخاص. بل لمطاردة أشخاص معينين محددين تماما.

●

ماذا تفعل نادية لطفي هنا، في « شمس المتوسط » ؟

كنت أظنها سافرت منذ حين. لكنها على سطح السفينة، بكامل عدتها. لقد أصرت على توديع المقاتلين، وجبة وجبة . . وغادرت مع الدفعة الأخيرة. معنا.

●

في جانب آخر من السطح تتعالى الموسيقى اليونانية، ونسمع الأغاني. نمضي الى هناك،ليفجأنا العجب . . البحارة اليونانيون وقد اعتمروا الكوفيات الفلسطينية يرقصون مع الفلسطينيين الذين اعتمروا « كاسكيتات » البحارة اليونانيين. والموسيقى تتعالى أكثر فأكثر ، بينما تتابع السفينتان الحربيتان الفرنسية والأميركية مطاردة الفلسطينيين واليونانيين في بحر كان مهادا لحضارة اليونانيين والفلسطينيين، ولم يكن بالتأكيد مهادا لمدنية فرنسية أو أميركية.

أسماك القرش تطارد الأغنية.

●

نبلغ ميناء طرطوس السوري ليلا.

كانت الجماهير محتشدة بكثافة على الساحل. بدأنا نهبط من السفينة. لا أدري لماذا شعرت بأن الناس صامتون صمتا غريبا. فهمت فيما بعد أن الكثير من المحتشدين كانوا ينتظرون أقرباءهم القادمين على هذه السفينة.

شققنا طريقنا بصعوبة. ومعنا رفيقنا الجريح. وفي تلك الليلة نفسها وصلنا دمشق .

●

في دمشق أيضاً شعرت بأن الناس صامتون صمتا غريبا.

أيكون هذا الشعور خادعا ؟

المدينة في حركتها الأليفة. الحافلات في الشوارع. والناس في الأرصفة. المقاهي كما كانت. والوجوه.

ولكن. . لم هذا الصمت ؟

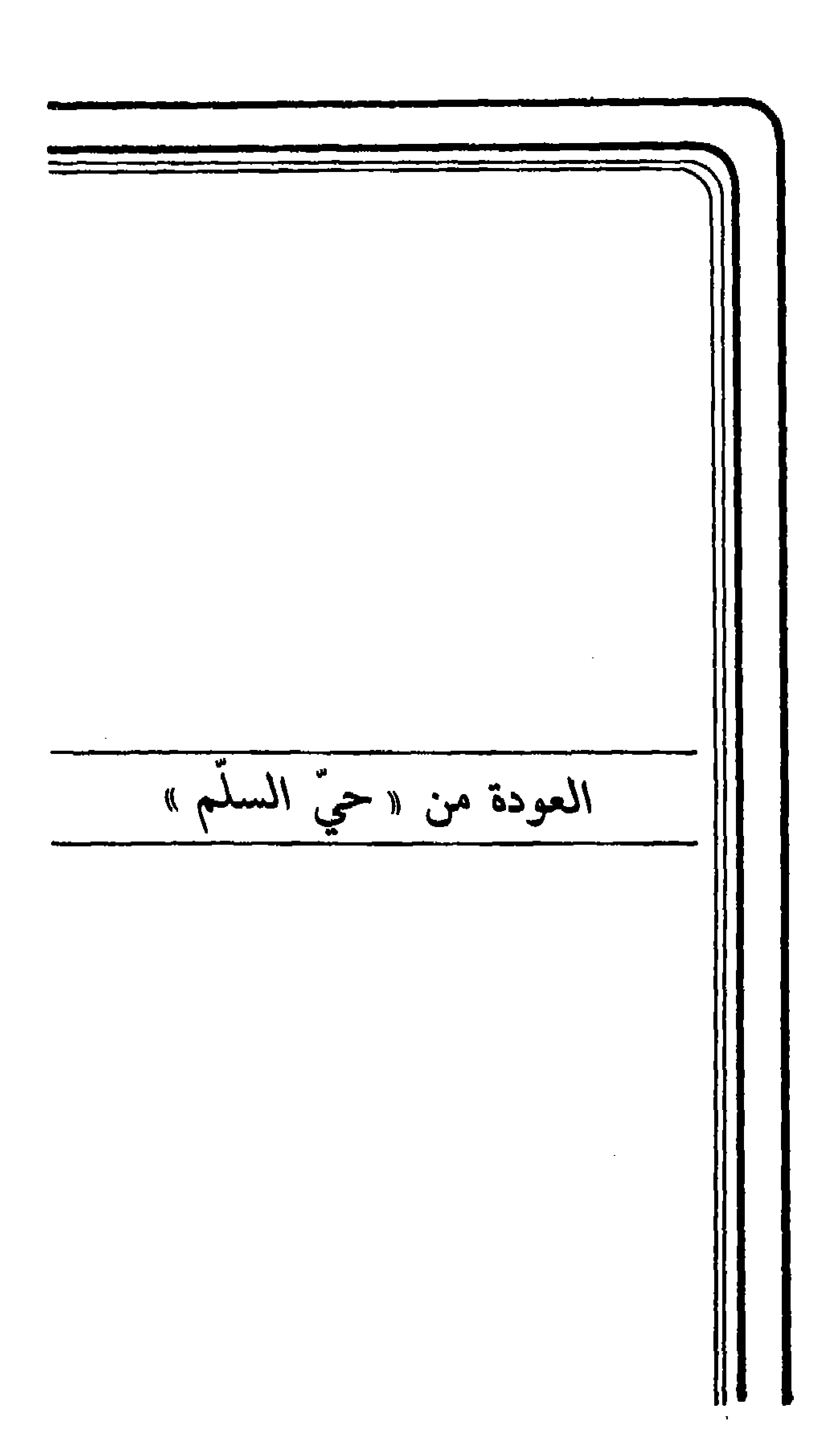
وأسأل أحد الأخوة ممن جاؤوا على « شمس المتوسط »، أسأله عن الأمر. وعما إذا كان يشعر هذا الشعور ذاته، فيجيبني : نعم.

●

أهي المقارنة بين مدينتين، أم بين حالتين ؟

أم تراه الصراخ الذي يتأكل أعماقنا أينما كنا ؟

ودمشق ليست الوحيدة بين المدن. لكنها المدينة الأولى التي نمشي فيها بعد الرحلة العجيبة، رحلة « شمس المتوسط » التي ظلت تطاردها أسماك القرش حتى مقتربات طرطوس.



العودة من « حيّ السلّم »

كانت صباحات بيروت تأتي بعد ليل طويل مرهق للعصب . وكان المرء حين يعود في المساء الشاحب إلى مأواه ، عبر شارع « الحمراء » ، يجد نفسه متغلغلاً في عتمة شاملة . أضواء السيارات النادرة هي التي تلقي بين حين وآخر حزمتين من نور عابر وسط هذا الشارع الذي لا نتذكر اسمه إلا مع الأضواء الباهرة وواجهات المخازن والملابس التي ينزلق عليها الألق . لقد تغير الشارع الآن ، واحتل فنادقه ساكنون جدد لا يأبهون كثيراً بالتأنق لبوسا ، واعتادت عيونهم عتمة الخنادق والمواقع ، هذه العتمة التي تكتفي بشمعة واحدة كي تضيء جانباً متوهجاً من ملامح عصر .

وإن المرء ليعود إلى مأواه المعتم ، آملاً في إغفاءة أو نعاس ، وربما حقق الخطوة الأولى من أمل عزيز لكنه سرعان ما يستفيق وهو أشد ارهاقاً ، وأكثر توتراً مما كان ، بسبب قصف قريب يرج المبنى رجا ويقتحم الأبواب والنوافذ والسلالم . . . يقتحم العصب المرهف المرهق ، لا جدوى ، إذن ، من محاولة النوم ثانية ، فالمبنى يضج بالحركة ، والنساء والأطفال يهبطون السلالم مسرعين الى الملجأ ، وثمة رجال يدورون على الشقق كلها ، داعين الناس إلى مغادرتها ، واللجوء إلى ذلك القبو تحت الأرض . ودقيقة بعد دقيقة ، رجفة بعد رجفة يتسرب الليل ، ويتسرب الناس من الملجأ ، هكذا تجد نفسك ،

في الصباح الباكر ، متمدداً في مكان من الغرفة ، أي مكان ، مثقلا بتهاويل ليل طويل ، مثقل الأجفان بنعاس لم يحقق مطالبه ، مثقلا في الوقت ذاته بمسؤولية نهار كامل عليك أن تنهض بها .

تتجه إلى « الحرية » ماشياً عبر الأزقة الجانبية ، فالسيارات قليلة ، واختراق كورنيش المزرعة مغامرة قد لا تخرج منها سالماً ، إذ دأبت بوارج العدو على اتخاذ الكورنيش هدفاً مفضلاً . تبلغ محلة « البربور » حيث « الحرية » ، وحيث دكان الفول الوحيد الذي تستطيع أن تتناول فطورك فيه . تدخل مقر المجلة الذي تحول إلى ملجأ أطفال ونساء ، وتلتقي بزملاء العمل الذين لم يجدوا غير المقر مكاناً لمبيت آمن في الطابق الثاني تحت الأرض . زملاؤك ما يزالون مرهقين ، وبعضهم متمدد على الأرض ، متمتع باغفاءة صباح عـزيزة . الساعات تمضي مع العمل ، والأخبار المتواترة ، جهاز اللاسلكي « شغال » ، والهاتف ما يزال « حاراً » ، والقهوة ظلت كعهدها ، ثخينة ، طيبة المذاق ، متضوعة الرائحة .

- إلى أين نذهب اليوم ؟

إلى « حي السلّم »

حسناً الى «حي السلّم»، بالرغم من شدة الخطر، إذ اعلن عن وقف اطلاق النار ، والعدو يفعل ما يريد في فترات اطلاق النار . وقف اطلاق نار ليس سوى مهلة دخين سيجارة ، كما قال مسؤول عسكري كان في المقر . ويأتي من يقول أن السيارة جاهزة . السيارة مدنية ، مع أن الطرق هناك مليئة بالحفر ، لكن الاسرائيليين يطلقون النار على أي « لاندروفر » تقع عليها أبصارهم . ونحن لا نريد أن نضحي بكم .

تمضي مع سائق متعجل ، عبر الفاكهاني و « أبو شاكر » ، مارين بسرعة جنونية الى جانب « الحرش » حيث تتمركز وحدات من جيش التحرير الفلسطيني ، وحيث يركز الاسرائيليون قصفهم . وشيئاً فشيئاً نكون في عمق « الضاحية الجنوبية » . في « المريجة » ينضم الينا ضابط من الجبهة الديمقراطية . . . يقول ان المواضع متداخلة ، وأخشى أن تجدوا أنفسكم ، فجأة ، ضمن مدى النيران لأحد المواقع

الاسرائيلية .

نبلغ « حي السلم » . الأزقة ضيقة مهجورة . والبساتين غادرها أهلها ، المقاتلون فقط نراهم بين حين وآخر . الطريق الرئيسي ينهض على امتداده جدار قوي . يقولون لنا : لا ترفعوا رؤوسكم كثيراً ، فهناك كلية العلوم حيث يتمركز الاسرائيليون ، ويكمن قناصتهم خمسمائة متر فقط تفصلنا عنهم . يقول غالب هلسا : لكني أريد أسيراً اسرائيلياً ، أسيراً واحداً . . . أريد أن آخذه معي . يرد عليه أحدنا : وماذا لو حدث العكس ؟ كيف تتحمل يا غالب طعام اليهود ؟

ندخل مدرسة بلا تلاميذ . قال لنا الضابط : هنا مقر قيادة القوات المشتركة . نهبط الى القبو . ونقدم أنفسنا الى قائد المحور . الرجل صامت . أخيراً قال : أنا لا أحب الحديث . أسألوني أجبكم بما أستطيع .

ـ كم يصمد هذا المحور في تقديرك ؟

ـ محورنا هذا محور مشاغلة وتعويق . نستطيع أن نعيق تقدم العدو أسبوعاً أو عشرة أيام . . تعرف أن أسلحتنا بسيطة . الآر . بي . جي هو سلاحنا الأشد فاعلية . الاسرائيليون لا يستخدمون المشاة . الدروع فقط . ونحن مستعدون لضرب الدروع . شبابنا شجعان . ألم تروا الدبابتين المحترقتين في الأرض الميتة بيننا وبين كلية العلوم ؟ الاسرائيليون متحصنون خلف هاتين الدبابتين أيضاً .

في هذه الأثناء سمعنا هدير طائرات العدو . كانت الطائرات منخفضة . يقول قائد الموقع لا تهتموا . انها متجهة نحو الجبل .

نشرب الشاي في القبو . نتحدث مع الضباط . يستدعي القائد أحد معاونيه ويقول له : سير دورية في المنطقة . قل للمقاتلين أن يلزموا مواقعهم وتحصيناتهم . . سمعت أنهم يتجولون كأنهم في الفاكهاني أيام زمان . نحن لا نريد ضحايا جديدة بالمجان . الطائرات الاسرائيلية تستخدم الآن الرشاشات لمطاردة الأفراد

وقتلهم . . . لو حدث أن طياراً اسرائيلياً أغار الآن على المنطقة فسوف نرى شبابنا مطروحين أرضاً وقد نخلهم الرصاص نخلا .

نعود من « حي السلم » ظهراً إلى « المريجة » . كان الضابط الذي صحبنا من هناك قد دعانا إلى الغداء معه . ندخل المبنى . نتوقف قليلاً عند مدخله . يبدو أن وقف اطلاق النار غير وارد إلا في نشرات الأخبار . ثلاث بطاريات مضادة للطائرات تحيط بالمبنى ، وتطلق نيرانها باستمرار ، والطائرات الاسرائيلية تزداد هديراً وانخفاضاً ، وهي في طريقها الى الجبل . المنطقة كلها ترتج . وألمح بائعة زهور أعرفها وهي وراء « الدوشكا » .

حول الطاولة الدائرية يأتوننا بوجبة المقاتلين : مقلوبة باذنجان ، وخبز ، ولبن رائب . . . وجبة مثالية في زمن الحصار .

السائق يدخل قلقاً ، ويدعونا إلى مغادرة المنطقة . بدا الضابط في غاية الحرج . نلتهم وجبتنا مسرعين . يصافحنا الضابط مودعاً . ندخل السيارة عائدين إلى « الحرية » ، وتنطلق في سرعة البرق . حين ابتعدنا قليلاً عن البطاريات المضادة للطائرات قال السائق لاهثاً :

اللعنة ! لقد كنتم تأكلون فوق أهم مخازن الذخيرة في الضاحية . . .

شهادة الأطباء في زمن الحرب

ثلاثة من المتطوعين الأجانب في مستشفى مخيم « صبرا » أدلوا بشهاداتهم ، إنهم رجل وامرأتان : طبيب بريطاني اسمه بول موريس (30 عاما) ، وطبيبة في التجبير من سنغافورة اسمها سوي شاي آنج (32 عاما) ، وممرضة امريكية يهودية هي ايلين سيجل (40 عاما) .

وقد نشرت « الديلي تلغراف » اللندنية خلاصة ما للشهادات التي أدلى بها الثلاثة أمام « لجنة التحقيق » الصهيونية .

تعتقد الشاهدة ، الآنسة ايلين سيجل اليهودية الامريكية ، البالغة من العمر أربعين عاما ، أن الجيش الاسرائيلي لابد أنه كان يعرف بالمذبحة ، وكان بمقدوره ايقافها . وبما أن للاسرائيليين مركز قيادة على مبعدة بضع مئات من الياردات عن المخيم ، وفي بناية عالية ، فقد أوضحت الآنسة سيجل قائلة « مستحيل أن الاسرائيليين لم يستطيعوا رؤ ية ما كان يجري ، أو سماعه . . فقد كانت اسرائيل مسيطرة » .

شاهدة أخرى هي الدكتورة سوي شاي آنج (32 عاما) وهي من سنغافورة ، وتخصصت في بريطانيا ، بجراحة التجبير . قالت ان الجرحى الذين كانوا يصلون إلى مستشفى المخيم يوم الخميس السادس عشر من سبتمبر لم يكونوا سوى قطرة قياسا بالسيل الذي تدفق ليلا . « لقد كنا هناك ، فريقا هزيلا ، من اثنين وعشرين أجنبيا ، نبذل أقصى جهدنا ، لاثنتين وسبعين ساعة متصلة ، وبلا

نوم ، ولا غذاء ، محاولين انقاذ حيوات ، بينما كان الناس يموتون بالآلاف » وذكرت انها التقطت صور ثلاثين جثة في مستودع الموتى بالمستشفى ، كما شاهدت ثلاث جثث ملقاة على جانب الطريق . بينما كانت المليشيا الكتائبية تخرجها هي وأعضاء الهيأة الطبية الأجانب من المخيم ، يوم السبت الثامن عشر من سبتمبر . وبينت أنها أجرت عمليات على سيل من المصابين ، ومن بينهم أطفال . وقالت « حدثني الناس عن مسلحين أقتحموا مساكنهم وأخذوا يطلقون الرصاص على أسر بكاملها . ذكر بعضهم أن المسلحين كانوا اسرائيليين ، بينما ذكر آخرون أنهم كتائب . حتى الممرض الذي يعمل معي أصيب ، فكان علي أن أجري عملية له ، بعد أن أطلق عليه الرصاص وهو واقف عند احدى نوافذ المستشفى » . تدفق اللاجئون الفلسطينيون إلى المستشفى ، طلبا للحماية . وكان آخر من أجرت له عملية ، فتى في الحادية عشرة أصيب في ساقه وذراعه . « أخبرني أن الكتائبيين قتلوا عائلته كلها ، وقد تمدد هو ، خائفاً ، على أجساد القتلى ، لوقت ما ، قبل أن يكتشف ويؤتى به الى المستشفى » .

وذكرت الآنسة شاي آنج ان اطلاق النار كان مستمرا ليل الجمعة وصباح السبت الباكر . وان مجموعة جنود مسلحين جاؤوا الى المستشفى يوم السبت . ظنت أولاً أنهم من الجيش اللبناني ، لكنها لم تكن متأكدة من هويتهم . وقد سألها ضابط باللغة الانجليزية عن عدد القتلى الذين شاهدتهم . وبأمر من هذا الضابط أخرجت الهيأة الطبية الأجنبية من المخيم . وفي الطريق إلى خارج المخيم شاهدت مجموعات من النساء والأطفال الى جانب الطريق ، وكانوا محاطين بجنود لم تستطع معرفة هويتهم . « حاولت امرأة أن تسلمني طفلها كي آخذه معي خارج المخيم ، وقد أخذت الطفل لبضع دقائق ، لكن جنديا أمرني باعادته . وحسب ما أخبرتني ممرضة سويدية ، فان اطلاق الرصاص استؤنف بعد ساعة من مغادرتنا المخيم ، وانها سمعت نساء يصرخن ، واستمر الصراخ عشرين دقيقة ، ثم همد كل شيء » .

□

الشاهد البريطاني قال ان النساء والأطفال كانوا بين المصابين الذين أدخلوا مستشفى المخيم ، بعد وصوله الى هناك من بيروت ، صباح الخميس .

العديد كانوا مصابين بنوع دقيق من الشظايا ، لم يره من قبل .

« منذ وصولي ، ازداد الأمر سخونة ، واكتظت الردهات ، بحيث نقلنا عددا من المرضى إلى مستشفيات أخرى . وكنا نجري العمليات باستمرار » .

بعد توقف لاطلاق الرصاص ، صباح الجمعة ، سمعوا اطلاق النار ، ثانية ، لمدة ساعتين ونصف الساعة ، وجيء بالمزيد من المصابين ، وبضمنهم « من أطلقت عليهم النار في مساكنهم » . وقد سمعوا مزيداً من الانفجارات في المساء المبكر .

وذكر الدكتور موريس ، وهو يصف زيارة الجنود صباح السبت ، ان مجموعة من خمسة جنود كانوا أنيقي الهندام ، بخلاف الآخرين الذين رآهم . كانوا مسلحين ، وسألوه باللغة الانجليزية عما حدث في المستشفى ، وعن عدد الاصابات .

وقد وافق الجنود على بقاء ممرضتين كي تعتنيا بالمرضى من ذوي الحالات الخطرة .

وبعد أن غادرت هيأة التمريض المستشفى ، وسارت في المخيم ، شاهدت جنوداً جدداً ينضمون إلى السابقين ، وكان هؤلاء ذوي مظهر خسيس . وكثير منهم يتكلمون باللغة الفرنسية .

□

في أواسط أغسطس (آب) ذهبنا إلى مخيم صبرا . الأخ عبد الله سالم القائم بأعمال اليمن الديمقراطية آنذاك . و« أبو نبيل » ، ومراسل صحيفة « لومانيتيه » الفرنسية ، وفرنسي آخر متخصص بالعمارة العربية جاء إلى بيروت متطوعاً ، ودليل أمضى في المخيم ثلاثين سنة من حياته . كان وقف اطلاق النار ثابتاً . وكنا نريد أن نرى ما بقي من المخيم بعد الجحيم المستمر من الغارات الاسرائيلية

وقذائف المدفعية والبوارج.

الطريق الرئيس إلى المخيم خال موحش . شققنا سبيلنا عبر الركام ، صاعدين . وقد أوصانا مقاتل كان يرافقنا بألا نسير في وسط الطريق ، وبأن نترك مسافة جيدة بين الواحد والآخر ، مبيناً ، وهو يشير بيده ، ان الاسرائيليين وراء ذلك الحاجز الترابي غير البعيد ، وانهم يرصدون باستمرار ، هذا الطريق . وعرض علينا ـ أن شئنا مشاهدتهم ـ الصعود إلى بناية معينة ، منحنين لنطل من خلال ثغرة في جدار ما ، على الموقع الاسرائيلي . تطوع بعضنا ، وتردد الآخر ، لكننا كنا نحس تماما ، ومثل وخزة الابرة ، بالناظور الاسرائيلي يتابع خطواتنا الحذرة . كنا متوقفين ، نستعيد أنفاسنا بعد أن بلغنا نهاية المرتقى ، وننتظر هبوط من صعد إلى تلك البناية ليشاهد الموقع الاسرائيلي . في تلك اللحظات انتبهت الى الأوراق المتناثرة تحت أقدامنا ، الأوراق التي تعبث بها الريح . المخيم أمامنا ، أبنية جاثية ، وأزقة مغلقة بكتل الاسمنت وقضبان الحديد والأخشاب ونحن نسند ظهورنا إلى الجدار قلت انني انتبهت إلى الأوراق المتناثرة . تناولت ورقة كانت رسالة عائلية حميمة . فجأة رأيت صورة فوتوغرافية بين الأوراق الملقاة ، التقطت الصورة . ها هي ذي العائلة كاملة ، الأب والأم والأولاد والبنات . كانوا في تلك الأناقة المتواضعة التي يتحلى بها سكان المخيم حين يكونون في عرس أو حفل أو اجتماع . ومن يدري . . لعل الصورة التقطت في مرة من تلك المرات النادرة التي تجتمع فيها عائلة فلسطينية « بكامل أعضائها » . . . ترى . . . أين هم الآن ؟ أين ذهبوا ؟ ان كانوا تركوا وراءهم حتى الصورة العائلية فماذا تراهم حملوا معهم ؟ وماذا عن الذكرى والمستقبل والمصائر البشرية ؟ المخيم أمامنا . . . أم الذاكرة ؟ لا أحد اطلاقا . الريح وحدها ، والورق المتناثر ، والركام ، وذلك الموقع الاسرائيلي غير البعيد . يقول لنا الدليل : خير أن نسلك هذا الممر . أنا أعرف المخيم أكثر من « مختار » . منذ ثلاثين عاما جئت هنا . أعرف كل باب ، وكل نافذة . أعرف تواريخ البناء والأبناء وأسرار الأزقة

الدوارة . وأعرف القادمين الجدد والراحلين القدامى . حياتي هي المخيم ، هكذا : من فلسطين إلى هنا .

كنا نسير في ذهول السائر في نومه . لم يكن أحدنا ليكلم الآخر ، حتى لم يكن أحدنا ليتأمل . ان كابوسا حقيقيا يجثم على الأنفاس . البيوت متناثرة الكتل . غرف النوم في الطريق . الكتب مبعثرة كالحصى وصور الشهداء تحيا ساعاتها الأخيرة . ثمة ماكنة خياطة في غرفة مفتوحة . رواية شهيرة باللغة الانجليزية ونباتات منزلية مغبرة الخضرة . ونحن ما نزال نسير . حذري الخطى ، حذري الرؤوس . فالممر يضيق أحياناً الى حد عجيب . وتختفي ملامحه ، لا أرض تطؤها . ولا فضاء فوقك : الأرض ركام وأنقاض حديد وخشب والفضاء فوقك أنقاض حديد وخشب وجدار نصف منهار . لكأن كل بيت من بيوت المخيم تعرض لعملية نسف خاصة ، عملية جرت بهدوء ، وتأن استثنائيين . وإلا فهل يعقل أحد ألا ينجو بيت واحد . بيت واحد فقط ، من القصف والقذائف ؟ قال الدليل : « من هنا » . . . وانعطفنا وراءه . فجأة سمعناه ينادي : ماذا تفعلون يا شباب ؟ لم يكن أمامنا غيره ، لكننا حين تقدمنا قليلا رأيناه يحدث ثلاثة فتيان داخل بيت مبعثر منهار السقف والجدران . ماذا تفعلون يا شباب ؟ أجابه أحدهم : نبحث عن شهاداتنا المدرسية !

نبلغ نهاية المخيم ، كنا عطاشا ، أبصرنا بحنفية ماء تتدفق بكل حريتها ، شربنا ، ووصلنا الشارع حيث حدود المخيم القديمة ، تأتي شاحنة صغيرة محملة بالخضار ، أكيد أنها جاءت عبر « حي السلم » ، بعد أن دفع سائقها رشوة للجنود الاسرائيليين . نريد أن نبتاع شيئاً لكن السائق يقول أنه يبيع الشاحنة كاملة . . .

الدليل يودعنا ، ونتجه الى بيروت تحت سماء مسائية عكرة .

□

في الفندق ، قيل لنا أن سكان المخيم الذين هجروه ، سوف يعودون قريبا ، وأنهم سيعيدون بناء ما تهدم ، وأنهم يصرون على بقاء

هذه الأرض الفلسطينية الصغيرة ، أرضاً فلسطينية صغيرة . كانت فنادق « الحمراء » ، والأدوار الأرضية ، ودور السينما ، والمدارس ، غاصة بمن تركوا المخيمات ، والتجأوا إلى وسط المدينة هرباً من القصف المستمر .

أما الآن ، فقد حانت ساعة العودة . . كان وسط المدينة يقفر بالتدريج . إذن . عاد أهل المخيم إليه .

□

جاءت أم ابراهيم ، وجاء أبو العبد ، عاملات « صامد » جئن ، وباعة الفلافل جاؤوا . الفران ، وأشبال فتح المناضل في التنظيم جاء ، وكبير العائلة . والأطفال جاؤ وا من ممرات فنادق المهجرين إلى أزقة المخيم المغلقة بالركام ليتخذوها ملعبا . الطلبة المزمنون في جامعة بيروت العربية جاؤ وا ، والمغني الأعمى ، أبو حميد جاء بملابس مدنية للمرة الأولى ، والزوجات اللائي ودعن أزواجهن في ساحة « أبو شهلا » جئن . و . . . هاك يا مخيم . . .

□

وكان شارون يرسم « دير ياسين » بألوان أشد فظاظة على لوحة واسعة . مثل 1948 إذن . نرهبهم كي يهربوا .

ولثلاثة أشهر ظل شارون يحاول أن يرهب الروح . لكنها روح تصلبت في المخيمات والمنافي وحصار الأنظمة ، روح تغلغلت في الذراع المسلحة . روح تصلبت وصفت كالبلور في وقدة العالم المحيط وقسوته .

ليس ثمة من يهرب .

وقال شارون : لم يبق الا الابادة .

وتلقى ممثل الموساد في مركز الكتائب تعليمات القتل المفصلة .

وتلقى ضابط ارتباط الكتائب في مركز القيادة الاسرائيلية التعليمات أيضاً .

بعد اسبوعين من رحيل سفينة المقاتلين الأخيرة بدأت المجزرة .

وفي تلك السفية كان كان العميد سعد صايل (أبو الوليد) ، وكان أبو أياد وأبو موسى . . . أما شارون فما كان بامكانه أن يقدم دبابة واحدة .

إلى أين يذهب

الفلسطينيون ؟

حين ارتفعت الأصوات ، أعلى أحيانا من هدير المدافع الصهيونية ، مطالبة برحيل الفلسطينيين عن بيروت ، سئل ياسر عرفات في لقاء صحافي : إلى أين تذهب ؟

آنذاك أجاب ببساطة ودقة متناهيتين : إلى فلسطين !

كان للاجابة ، في ذلك الوقت الصعب ، رنين رومانسي يتغلغل عميقا في الروح .

فمن داخل الحصار والارتباك ، من داخل الأقبية التي ترصدها الطائرات والأجهزة الالكترونية المعقدة ، من داخل الهول والدمار ، تنطلق حقيقة بسيطة كاد ينساها الكثير ، ومن بينهم فلسطينيون كثار ، وهي أن فلسطين هي الوطن ، وأن لا بديل من الوطن ، وأن بيروت في المطاف الأخير ليست أرضاً فلسطينية ، بالرغم من أن الفلسطينيين منحوها الدم الغالي وقمصان الشهداء ، طوال خمسة عشر عاماً .

المعادلة تستعيد صرامتها وصراحتها ، ومن جديد تندفع إلى الواجهة حروف فلسطين ، ناتئة ، خشنة ، كأن عام 1982 هو عام 1948 .

والعناصر تغدو أشد قسوة كلما دفعنا بالمعادلة إلى أمام . فإلى أي مسافة أقترب الفلسطينيون من فلسطين عبر مسيرة الضنى الكبرى ؟

هل كانت بيروت ألهية ذات ميقات محدد ؟ وهل انطلت « اللعبة » على أناس ؟ وهل استمرأها أناس ؟ حتى إذا جاء أجل « الاستحقاقات » كما تعبر الصحافة اللبنانية . . وعلقت كل شاة من كراعها ؟

هل استطاعت الأنظمة المرتجفة فزعا من حركة ثورية مسلحة ، أن « تحجر » على هذه الثورة في « غيتو » من نوع جديد . . لتأمن « شر » الثورة ، بينما تخطط هذه الأنظمة ذاتها بالتحالف مع قوى الشر الأسود للاجهاز على الغيتو نفسه وتسويته بالأرض ركاما ، كما حصل فعلا ؟

الفلسطينيون يراد لهم أن يكونوا ، دائما ، في لحظة الصفر ، لا في ساعة الصفر .

عسكريا ، يراد لهم أن يدخلوا دورة اللاجدوى ، الدورة الشيطانية التي ظلت تحطم الطاقات العربية كل عقد من السنين أو نحوه . والمقارنة بين أيلول عمان 1970 وحزيران لبنان 1982 ليست بالأمر الغريب على أي حال .

وبين تل الزعتر وصبرا وشاتيلا أكثر من وشيجة .

والفلسطينيون يراد لهم ، سياسياً ، التطابق مع الأنظمة إياها . ألم يصرح « بعض المسؤولين العرب » بأن القضية الفلسطينية أمست قضية حقوقية ، وأن الجسور ينبغي أن تقام بين خطة فاس وخطة ريغان ؟

ألم يدفع الفلسطينيون إلى الاستنجاد ، حماية للمدنيين ، بأشد الأنظمة احترافا في قتل المدنيين ؟

لكن كل هذا لن يمنع أطروحة ياسر عرفات القاسية من أن تظل ببالغ قسوتها : أذهب إلى فلسطين .

لقد وضعت الأنظمة إياها ، في القفص ، من جديد .

ان الفلسطيني ، حتى لو كان مكبلا، محاصراً مستنفذاً ، مرمياً في المتاهة ، معادا مرة أخرى الى صورة اللاجىء - يظل بذاته ، الاتهام الأكبر ، الاتهام الذي يفرض ، ضمنا ، ان الآخرين مذنبون .

إلى أين يذهب الفلسطينيون ؟ هذا السؤال غير موجه إلى ستة عشر الف مقاتل غادروا بيروت . وهو ليس موجهاً الى الفلسطينيين بالذات . فالمقاتلون يعرفون ماذا يريدون ، ولماذا يقاتلون . والتجمعات الفلسطينية في الشتات العربي وغير العربي تعرف أيضاً ماذا تريد . السؤال موجه إلى الأنظمة التي دأبت على سحق الفلسطينيين . والجواب واضح : الفلسطينيون ذاهبون إلى فلسطين ، لكن عبر أكثر من عاصمة .

سلالم الدامور

ثانية ، تلح علي تلك الليلة .

أردت ، أن أكتفي منها بالقطرة المضافة إلى دمي ، والزهرة الطرية في الذاكرة ، وأن أدعها تنطوي على نفسها في دعة الرصاصة المهملة . أردت أن أستعين بها يوما ، حين يقل العون ، ويشحب الأفق .

لكنها تلح علي . .

المطر الناعم الذي رافقنا تلك الليلة إلى « الدامور » ، ما يزال دافئاً على جبهتي وقميصي .

والبحر الذي جعلنا نرهف أسماعنا حتى التوتر ، ما يزال معي ، هدهدة وهديرا ، واحتمالات ليل طويل . وسلالم الحجر الرطبة المتأكلة . . ما زلت أراها ، صاعدة ، صاعدة ، متسامية بغير انتهاء .

وثمة شجرة التين التي تقطر ماء ، وتمد أذرعها الخشنة في الليل المكتنز ، كأنها تريد أن تلمس اليقظة السرية للكائنات . .

قد تزل القدم ، أو تزلق . . لكن حجر السلالم لا يزل ، ولا يزلق . . إنه ماض في مرتقاه ، مشدود إلى العلاء . وأنت ، من أنت ؟

تجيء إلى « الدامور » في استطراف الزائر أو السائح ، وتظنك

عائدا ببضاعة ترد إليك . تتطامن إلى أنك رأيت شيئاً كنت تعرفه فيما صورت لنفسك ، وتطمئن الى حدسك المتباهي .

أرأيت كم كنت مخطئاً ؟

أهبط من أعالي الدامور ، مبتلا بندى الفجر ، وقهوة الصبح الحاد غائم الرأس بهدير البحر الذي ظل رفيقي طوال الليل ، متحسسا على ذراعي الجسد النحيل لذلك الطفل الذي باركت عينيه حين تناولته من يدي أمه . ها أنذا أهبط السلالم ، رضي النفس ، واثق الخطى .

أهبط وحيدا .

لكن أغنية الدامور تتعالى من كل مكان . . تتعالى في كل نبضة مني .

والتفت ، بغتة ، إلى الوراء . . .

انظر إلى الأعالي ، حيث تواجه الأغنية ، القذيفة .

1980/11/21

أو لم تحاكم نفسك ، وأنت بين الوهم الذي أبصرت ، والحقيقة التي تبصر .

أو لم تقل ، ما أبعد الدامور . . . وهو منك ، منا جميعاً ، على مرمى حجر ؟ وهو من أعدائنا على مرمى قذيفة مدفع أو صاروخ طائر ؟

هل كبر الشعر على الحقيقة ؟

وهل مضى شعر الزمن الفلسطيني ، بعد أن أمسى هذا الزمن دواوين أنيقة . . تطبع ويعاد طبعها . . أكثر أناقة ، وأنعم ورقا ، وأجمل غلافا ؟

هل المنبر الفلسطيني ، قاعة مكتظة في جامعة ، أو مشرب في فندق درجة أولى ، أو دار نشر تخاف اسم فلسطين ؟

أو ليس « الدامور » مئات ، الافا ، على امتداد الأرض العربية

التي لم نعد نعرف لها حدوداً ؟

● ● ●

هون عليك يا ولدي . .
فما الصراخ بمبلغ أحدا ،
هون عليك يا ولدي . .
ولتفرح حين تسمع أذناك ،
لتفرح حين تبصر عيناك ،
ولتطر على جناحي الأغنية حين تتجاوب
والروح . .

« الدامور » ، تسهر ليلها ، قلعة قديمة على المتوسط ، لا تستضيء إلا بالقناديل والشموع العيون المترقبة .

الليل له طعم آخر .
والنهار له طعم آخر .
الحياة ، بأسرها ، انطلقت من أسارها . . .

حياة لا تتحكم إلا للمثل ، حتى لتبدو المثل ذاتها ، في يوميتها وعاديتها ، شيئاً سوى المثل .

لكنها الحياة .

حدّ أقصى

في حديث ياسر عرفات عن الثقافة الفلسطينية الذي أدلى به، لليانة بدر، ونشرته جريدة « السفير » في عدد سابق من أعداد الأحد، أكثر من نقطة يمكن التوقف عندها.

لكن واحدة من النقاط المضيئة في الحديث ،كان مسألة الحرية في الابداع، التي دفعها قائد الثورة الفلسطينية الى حدها الأقصى، حين قال ما معناه ان ثمت كتاباً فلسطينيين يكتبون حتى ضد الثورة، فلا يتعرض لهم أحد، وانه لا يتوفر في بلدان عربية أخرى، ربع الحرية التي يتمتع بها الكتاب الفلسطينيون.

ان هذا الأفق الذي توضع فيه الثقافة، داخل حركة ثورية عربية، تواجه، يوميا، مئات المخاطر والاحتمالات، حركة لم تبلغ بعد، طمأنينة السلطة. . هذا الأفق يستحق منا كل حرص، وتشجيع، ويستدعي مقارنات ماثلة لا بد من إستدعائها حتى بين حركات ثورية.

1981/6/8

شارة النصر

ماذا كان يفعل عثمان عبد الرحمن عثمان حين هبطت قذيفة الهاون الاسرائيلية الصنع على مكاتب وكالة الأنباء الفلسطينية (وفا) ببيروت ؟

أكيد أن هذا الشاب لم يكن يوجه صاروخا الى أي مكان في الأرض أو السماء . .

كان الى جانب بدالة الهاتف، يصل البشر ببعضهم، ويمزج أصواتهم وضحكاتهم، ويتلقى أنباءهم السريعة ويرسلها. عثمان عبد الرحمن عثمان الذي أحب عمله حتى كاد يغدو وجه حبه لشعبه وللناس، لم يكن يفكر بأن هناك من يرصد رنين الهاتف ليرى فيه انتزاف الدم، دمه هو، عثمان الدم الذي سيصبغ ما تبقى من البدالة، وما أسود من ارضية الغرفة.

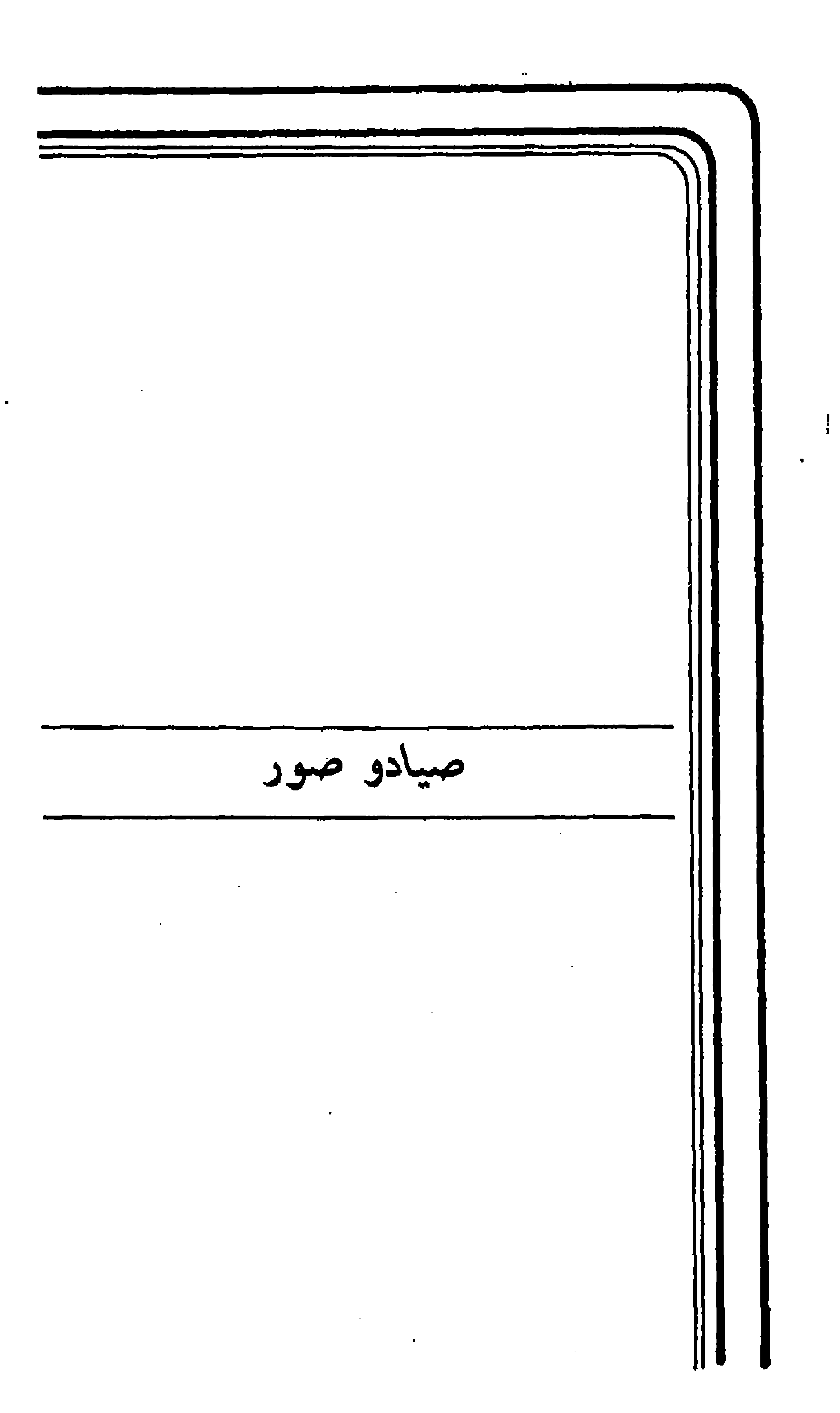
أكان عثمان سيعيش في تلك البراءة لو أن القذيفة أخطأته ؟

أكان سيعود الى بدالته، يصل البشر ببعضهم ويمزج أصواتهم وضحكاتهم ويتلقى أنباءهم السريعة ويرسلها ؟

انه فاعل ذلك أكيدا.

والدته فعلت ذلك.

لقد رأيتها، في موكب التشييع، متقدة الوجه، ممتدة اليد خارج نافذة السيارة، ترسم بأصبعيها شارة النصر . . .


صيادو صور

شوقي بزيع يحب صور، لأنها مدينته أولا ، ويحب صيادي صور لأنهم صيادو مدينته أولا . . لكن هذا الحب الأول استوى مع الزمن والأحداث شغفا من نوع جديد، شغفا يسعد حامله بمسؤ ولية معينة، هي مسؤ ولية القلب الموزع في قلوب كثيرة . . بينها، وفي الصميم منها، صيادو صور، هؤلاء الذين وهبوا مهنتهم الشاقة مستوى النضال اليومي والأبدي في آن.

لهذا، حين يصحبك شوقي بزيع الى صور، يدور بك في أحياء المدينة، ومناطق آثارها، وكنيستها، وأشجارها، وكل ما فيها، أما البحر، فيدخره كنزاً يضن به حتى اللحظة الأخيرة، آنذاك يتكشف الكنز، بين المقهى، والموج، ونقابة صيادي صور، التي هدتها ذات يوم قنبلة اسرائيلية، فما كان من أعضائها إلاّ أن أعادوا بناء مقر نقابتهم في سرعة قياسية، وعادوا يجلسون، بين الشباك والسلال، وفناجين القهوة وكؤوس الشاي . . وعيونهم أبدا الى البحر المليء بالاحتمالات.

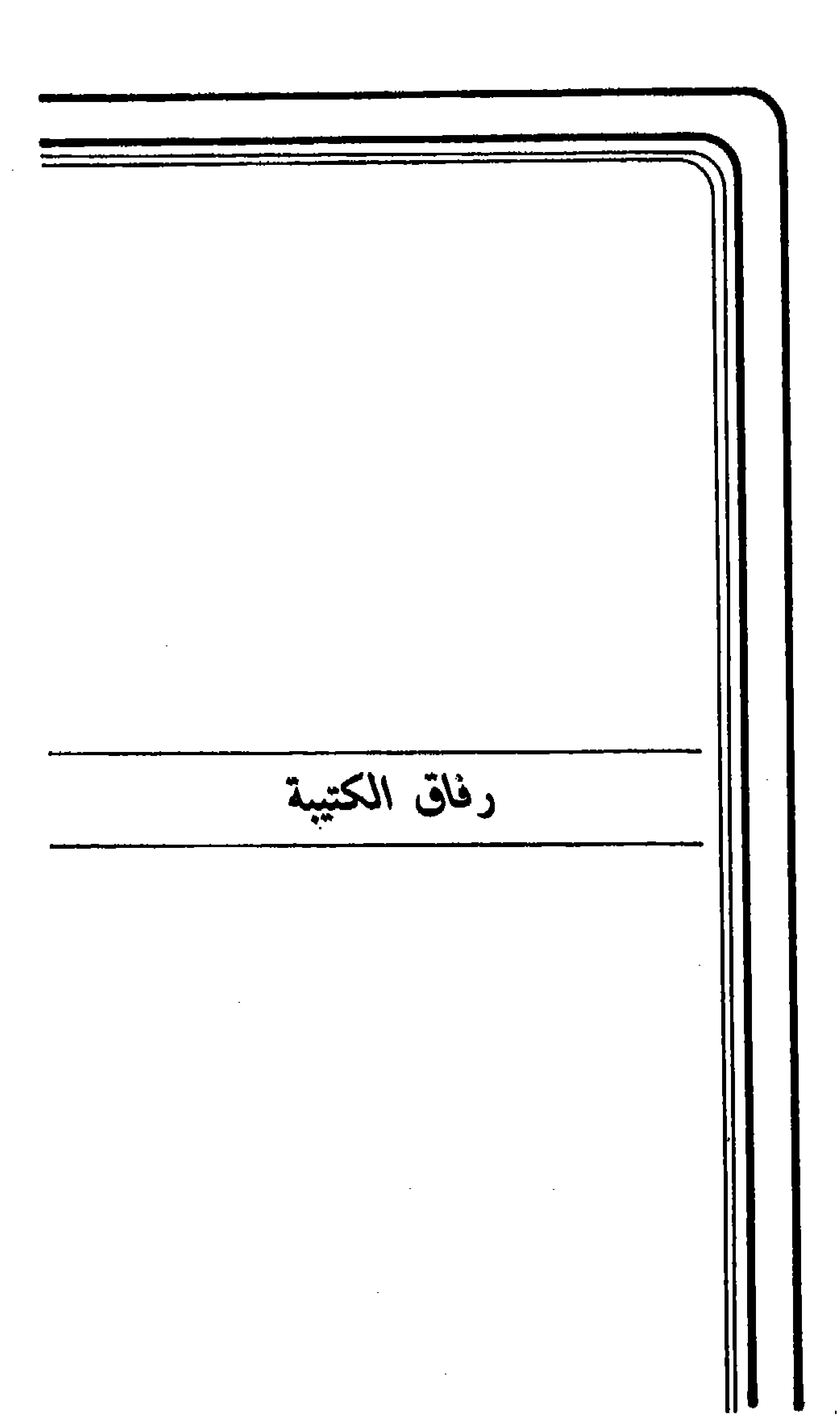
معظم الصيادين كانوا شبابا . . الصيادون القدامى هددهم الاسرائيليون، فما عادوا يركبون البحر . الصيادون الشباب جاءوا، إذ لا بد من الصيد. لا بد من الخبز . . البحر أمامكم، والعدو أمامكم . . ولا بد من الخبز.

صيادو صور يحملون قضيتهم الى العالم أولا ، والعرب ثانيا . .

ان بين الصيادين، في بحار العالم، وشيجة التعامل مع البحر. . .

هذا المغلق الفسيح . . التعامل مع العناصر، والتعامل مع رجولة الكون .

لكن وشيجة جديدة سوف تربط بين صيادي صور وصيادي العالم . . فللمرة الأولى يتعامل صياد سمك مع العناصر، وهو مهدد بزورق طوربيد . . .



رفاق الكتيبة

يستطيع ماجد أبو شرار ان يطمئن الى أنه عاش قريبا من مثله الأعلى، لصيقا به، منافحا عنه، حريصا عليه، في زمن يصعب الحرص فيه.

ويستطيع أخوة ماجد أبو شرار ورفاقه في الكفاح المرير. أن يتباهوا بأن واحدا بينهم مضى الى نهاية المسيرة، نقيا، طاهرا، مع تلك الكتيبة الخرساء من الصديقين والشهداء في الثورة الفلسطينية. أتشرف بأنني عملت مع ماجد أبو شرار في الاعلام الموحد، شأني شأن العديد من المثقفين العرب الذين ضاقت بهم الأرض، واتسعت أمامهم أبواب التراجع والابتذال والاغراء، فكان العمل مع ماجد أبو شرار ضمانة استقلال في الرأي، واستقرار على الهدف الثوري، وافتخار بالموقع النظيف. كان، وهو في الاعلام الموحد، وفي المركز الحساس المعبأ بالمسؤوليات، يجد من وقته متسعا لنا، نحن الضائعين في سماوات الوطن، مثل طيور وحشية وكان يجد في متاعبنا، وعلائقنا، المشتبكة. ما يذكره بكاتب القصص الذي كانه يوما. انه بيننا القاص ماجد أبو شرار الذي يتمنى أن يصدر مجموعته الثانية.

أقول لماجد أبو شرار ما قلته لوائل زعيتر الذي إستشهد في روما أيضا :

عنبا لفلسطين، خبزاً لأطفالها، كنت

في غرفة بأزقة روما

وفي شرفة بالكتاب الذي كنت تقرأ . . .

أي العذوبة كنت

وأي العذاب

وأي بلاد تخيرت حبك فيها ؟

●

الشهداء يرودون مراقيهم الصعبة، ونحن، المرشحين الدائمين للشهادة، الفاقدين كل يوم بضعة من جسدنا، نقول لماجد أبو شرار :

اننا رفاق الكتيبة التي عرفت، إخوتك في الثورة حتى النصر، أشقاؤك المقتدون بك، المتبركون بإسمك، المطمئنون الى أن طريقنا هو الممر الى النور مهما أدلهمت العتمات. لكأن قذيفة الهاون الاسرائيلية 120 ملم، التي هدمت مكتبك، وأحرقته في الفاكهاني، يوما ما، بينما كنت غائبا، لم تبلغ الهدف العصي، ولن تبلغه . . وأنت المحصن بالثورة، المتدرع بحيطة المناضل.

وكان على هذه القذيفة، ان تنطلق في فندق بروما، متخذة هيأة متفجرة تحت السرير

أهو مصيره وحده ؟

هذا المصعد الصامت البطيء، المؤدي الى « المؤسسة العربية للدراسات »، في أول « ساقية الجنزير »، عند الكارلتون، المصعد الذي يستقله المثقفون والمبدعون وأهل الكتاب، وعبد الوهاب الكيالي . . هذا المصعد، هل فكر أحد يوما بأنه سيحمل الى صدر الرجل المفعم دفئا، تلك الرصاصات القاتلة ؟

ترى، ألم تستطع إحدى عشرة سنة من خدمة الفكر العربي، أن تمنح الرجل حصانة ما، ولو ضد الرصاصة ؟

ليكن الاختلاف ما يكون، ليكن مستوى الخلاف ما يكون . . لكن عبد الوهاب الكيالي ـ عضو المجلس الوطني الفلسطيني ـ كان بعيدا منذ سنوات، عن حيثيات صراع خاضه، يوما ما، مهتديا بمثل رآها صالحة، تستحق العناء. أتذكر عبد الوهاب الكيالي، حين رأيته للمرة الأولى، بعد وقت قصير من مغادرتي العراق، أوائل 1979 . . . وكنا نعرف بعضنا جيدا. لقد فتح الرجل أبواب « المؤسسة » امامي، فصدرت لي عنها أربعة كتب خلال اقل من ثلاثة اشهر.

قال لي : حسنا فعلت. الأيام عصيبة، والمبدعون لهم الأرض العربية كلها.

والحق أقول اني فوجئت بالموقف. مقدرا علائق الرجل، وحساسية

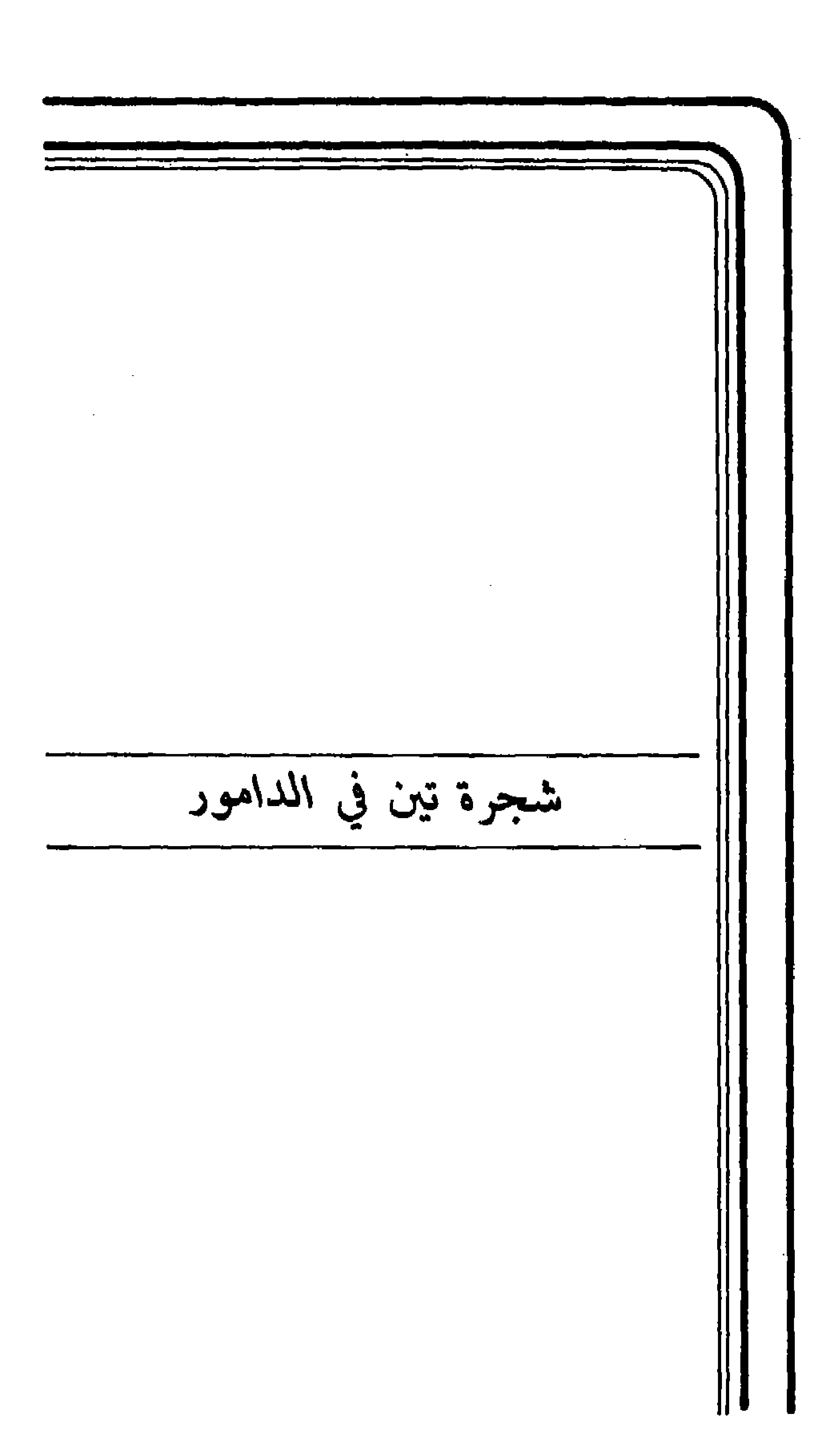
أناس معينين تجاه إسمي . وقلت في نفسي : ها أنذا اجد خيراً، رجلا يقود عملية- نشر ضخمة بعينين واسعتين الى هذا الحد.

أتذكر الآن، فناجين القهوة الصغيرة، والسأم البادي على وجه متعب. . هذا الرجل الذي اختار في النهاية- حماية الفكر. . كان إختياره صعبا، وكان طريقه الى الاختيار أصعب. وان لم يكن لعبد الوهاب الكيالي من فضل يذكر. ومأثرة تنسب، فثمت، في الأقل. هذا المسعى الموسوعي الذي دأب عليه، من أجل الصلة عبر موسوعات « المؤسسة ». الرصاصة ترتقي المصعد الصامت البطيء. .

ويمضي د. عبد الوهاب الكيالي، الذي لم يتسلح الا بالكتاب، نحو مصيره. . .

أهو مصيره وحده ؟

1981/12/14



شجرة تين في الدامور

غدا أكون في الجنوب . . .

وتفجؤك عينا هذا الفتى القادم من جنوب آخر يظله النخل، وتتخلله الجداول، تفجؤك عيناه ببريقهما العميق، وبقطرة الضوء التي تستشفها متألقة في السواد البهي. وفي سواد العالم المحيط. انه يقلب علبة الرصاص الصغيرة الثقيلة، مثلما يقلب الكلمات حين يكتب قصيدة، ويفرح بتجهيزاته فرحه بقميص العيد. . ها نحن اولاء نعود، في خطفة خارقة، الى الطفولة ذات الأمد القصير القصير، الى رائحة القميص الجديد، وبهجة السروال نلبسه للمرة الأولى.

سأودع هذا الفتى. أكون مع توأميه وزوجته الناحلة، وشجرة التين التي طالما تحدث عنها، في «الدامور».

ونمضي معا، في مهبط الليل.

حتى اذا بلغنا الدامور، كان رذاذ المطر، يحمل رائحة شتاء مبكرة، ويهب الأغصان حياة من السر، وحركة العناصر الخفية. . ونرتقي سلالم الحجر، نتلمس مرتقانا في العتمة المستسرة، متحصنين إزاء الزلل بانتباه غير انتباه عثرة الجسد. . فالدامور في الليل، غير الدامور في النهار. . وما حسبناه رومانسيا قد يحمل في لحظة واحدة وخز الواقع الخطر. .

قف!

وأعرف أننا لسنا وحدنا. في هذا الليل المطبق. . وأن ثمت أناسا مثلنا يمنحوننا، الثقة، والحصانة، وعزة الخطوة. بينما نحن ما نزال نتابع مرتقانا.

ها هي ذي شجرة التين، مبتلة، مثل هيدب داان. . والمس أوراقها الخشنة المكتنزة، فأحس تحت أصابعي ملمس حقيقة لا نحس إدراكها دائما، حين نمر بشجرة عابرين، أو نبصر غصنا مسرعين.

وندخل البيت العالي من باب واسعة تتمشى فيها الريح طليقة مثل قطرات المطر. .

إنها شجرتي. لو جئتني قبل أسبوعين لقطفت لك من ثمرها. .

لكنك ستجيء، حتما، في الموسم الآتي، بعد أن رأيتها.

الفتى القادم من جنوب آخر، يوقظ زوجته، ويحمل لي توأميه ذوي الشهر الأول، قطتين صغيرتين لا تكادان تفتحان عيونهما. سهرنا الليل. . على ضوء الفانوس الضئيل، وهدهدة البحر. .

وحين إنصرفنا، جميعا الى مهاجعنا. . إخترت ارضية الأسمنت، قريبا من نافذة هدمت القذائف ركنها.

ما الذي تحمله هدهدة البحر، الليلة ؟

أين الملجأ الأخير ؟



عام 1957 التأت الى الكويت.

عام 1964 إلتجأت الى الجزائر.

عام 1979 التجأت الى بيروت فالجزائر.

عام 1980 التجأت الى الثورة.

عام 1981 وفي شهر نيسان، في محلة أبو شاكر ببيروت: إلتجأت الى الملجأ.

مساء ربيعي، والشوارع تخلو من السابلة، منذ الظهيرة أصوات إنفجارات وقذائف بعيدة. ليس من مكان الوذ به ضغطت الزر على بابين وكان الأصدقاء غائبين. أخيرا دخلت مصعدا صبورا في عمارة بـ «ابو شاكر»... ولم ازل احاور المصعد حتى بلغ بي الطابق التاسع. إنفتح باب الشقة ودخلت. كان الأصدقاء كثارا.

الشرفة مفتوحة. والصالة تتنفس نسيم المساء ذي الرطوبة الخفيفة. وكنا نتحدث عن الكتب.

فجأة، قال من كان يستمتع بطلاقة الشرفة: إنظروا!

القذيفة تلتمع، حمراء عبر سطوح العمارات.. في خط مستقيم.. ثم تنفجر في مكان ما.

القذيفة الثانية، فالثالثة. . القذائف تتوالى. . كان في كل ثانية قذيفة.

وتمتد القذائف، كأسلاك هاتف حمراء،

ويهدر الانفجار.

الدخان يتصاعد من منطقة غير بعيدة.

الدخان يتصاعد من منطقة اخرى.

والانفجارات تتوالى، وتزداد قربا.

تركنا الشاي، وحديث الكتب. الحريق يلتهم المنازل والناس ويتعالى الأنين القاسي لسيارات الاسعاف والاطفاء. وتحتضن امرأة بيننا طفلها الوحيد، وتسرع خارج الصالة المكشوفة، الطفل لم يزل نائما.

ثمت من يطرق الباب.

الانفجارات جد قريبة، كأنها في باب العمارة.

يدخل الطارق. .

« القصف عشوائي، يا جماعة، اتركوا الشرفة، وانزلوا الى الملجأ ». .

بعضنا حاول التشبث بعناد اللامبالي.

لا فائدة.

الآن وفي هذه اللحظة، يهدر انفجار فظيع، كأنه بيننا، تختطف الأم طفلها، تخرج من الشقة. . نخرج جميعا من الشقة. « لا تستعملوا المصعد للهبوط رجاء ».

نهبط على السلالم، نلتقي بالهابطين الآخرين. . لنجد أنفسنا في الملجأ، مع حشد سكان العمارة الذين سبقونا.

كان عدد من الشباب يفتحون صناديق الكارتون، ويمدونها فراشا على أرضية الملجأ، يقتعده الناس. الرجال يتحدثون وبعضهم يجد

المزاح الكافي لقول فكاهة أو نادرة.

النساء صامتات على غير ما ألفن.

الأطفال جاؤوا بأصغر ألعابهم، وبزجاجات الرضاعة.

الهواء يزداد كثافة.

وبين دخان السجائر، وضيق الصدر والمكان.. تجد نفسك باحثا عن متنفس..

أقول لصاحبي: لنقف في أعلى السلم الملجأ... عند الممر.

نذهب، لنرى ثلاثة رجال يبحثون عن رابع يشاركهم لعب الورق. انهم يعدون أنفسهم لليل طويل.

البواب، أو صديق البواب «وهو مصري» كان يتحدث مستخفا في الحرب «الثانية» كنت اتعشى. جاءت الطائرات. قالوا لي: انزل الى الملجأ. قلت: وعشائي؟ قالوا: انزل.

لكني لم انزل، والله، حتى أتيت على عشائي كاملا. كان عشاء جيدا. طبيخا ولحما.

أنظر.. «وأشار الى اليته».. هنا أصابتني شظية. كنت ذاهبا الى سينما سلوى، أريد أن اشاهد فيلما مصريا. الازدحام شديد على شباك التذاكر. قلت: لأذهب أشتري «بوظة»، إشتريتها.. واخذت أتمشى متمهلا، متلذذا بالبوظة.. وإذا بالقذيفة تنفجر في باب السينما. أنتم تعرفون القصة، حسنا.. أما أنا، فأتممت بوظتي.. مع أني اصبت بشظية في هذا المكان اللعين!

ويضحك، بينما يبحث الرجال الثلاثة عن رابعهم.

هدأ القصف.

قالت امرأة تسكن الطابق الثالث: تعالوا نشرب قهوة عندنا. لبينا دعوتها.

جاء زوجها، يشرب معنا القهوة ويحدثنا، في وقت يزداد إصرار

ولده الصغير فيه لعبة يجب ان يأتوا بها في الحال. نحتسي القهوة مسرعين. ندخن بعصبية مكتومة. الرجل لا يريد ان يتأخر في الشقة.

« ماذا أفعل ، هنا كسبي وزبائني. الى أين أذهب ؟ منذ سنتين فقط جئت هنا. كنت في الشرقية. في إحدى الليالي كنت نائما بين ولدي. واذا بالصاروخ يخترق الغرفة. حين دخلت زوجتي كان التراب يغطينا. خرجنا سالمين . . ».

قالت السيدة :

« لكن ركبتي ظلتا تختضان ستة اشهر كاملة ! لم اصدق انهم خرجوا سالمين ».

الطفل ما يزال يطالب بلعبته :

« لن أنزل الى الملجأ إذا لم تأتوا لي باللعبة » .

تعثر الأم على اللعبة. نغادر شقة الطابق الثالث، عائدين الى الملجأ.

القصف يعود شديدا.

قلت لصاحبي : لن أبقى في الملجأ.

سأذهب الى يوسف. بيته في الطابق الأول. الاحتمالات اقل. والمسافة قريبة.

الشباب في مدخل العمارة، ينصحوننا بعدم الخروج. إنظروا . . ليس في الشارع أحد.

الانفجارات تقترب.

وأتذكر ما حكاه لي سالم عن صديق عراقي كان في القاهرة، أيام الحرب الثانية. كان ذلك الصديق يظل على السطح يراقب الطائرات المغيرة متمتعا. وحين طلب منه مغادرة السطح قال :

« عجيب، هذا الطيار الايطالي الذي جاء من روما . . أتراه جاء خصيصا ليلقي قنبلته على رأسي « ! ».

نغادر العمارة، أنا وصاحبي، ونندفع في هواء الشارع راكضين، قريبا من الجدران، بعيدا عن وسط الشارع.. ونبلغ الساحة... الهدف المثالي المفتوح للقذائف. هنا، فقط، أحسست بإرتعاشة خوف. نقطع الساحة راكضين، لندخل في الزقاق، ولندخل بعد قليل شقة يوسف.

في الداخل، كان الأصدقاء مجتمعين في المطبخ :

إنه المكان الأمين !

إذن.. أنحن في الملجأ الأخير؟

الم تدخر لنا هذه الأمة، الممتدة بين حدود العراق وساحل الأطلسي في المغرب. غير هذا المصير؟

وأي أعداء متحكمين هؤلاء الذين يطاردوننا، على إمتداد هذه الأرض الواسعة، ليحشرونا حشراً، في الهواء الساكن للملجأ البيروتي...

ماذا سنقول عنهم ؟

ماذا سنكتب عنهم ؟

ماذا سيقول الآتون، حين ينقبون في تاريخنا المعاصر، فلا يجدون الا المزابل ؟

لكننا لن نترك هؤلاء الأعداء المتحكمين يطمئنون.

لن نتركهم يستثمرون الخيانة، ويتلذذون بالقهر والقمع والمطاردة.

لن نغفل عنهم.

ولن نقبل بمأزق الملجأ الأخير.

سوف نخرج، وسوف تخرج الجماهير، من كل ملاجئها الأخيرة.

سوف نندفع في هذه الأرض المقهورة، نحمل وقدة الثورة، واشتعال الخطوة النبيلة. وسوف نفتح الأبواب المغلقة، ونشرع

النوافذ للريح..

آنذاك سيكون الملجأ الأخير ذكرى..

آنذاك نطلق القذيفة الأخيرة، مثلما تنطلق التهاليل.

مفاعل نووي في بغداد

« لقد شاهدت قبة المفاعل، وهي تعلو في الهواء، وتنفجر متناثرة الى قطع، تماما كما يحدث على الشاشة السينمائية بالتصوير البطيء. شاهدت طائرة تحلق على إرتفاع منخفض للغاية من دون أن يحدث شيء، وفجأة جاءت طائرة اخرى وألقت أجساماً إسطوانية قطرها بضع عشرات من السنتيميترات وطولها يقرب من ثلث الطائرة، وأندلعت النيران عقب الانفجار على الفور، ومن خلال الأتربة رأيت القبة الخرسانية لمفاعل (اوزيراك) التي يبلغ إرتفاعها واحدا وعشرين متراً تحطمت، وأصبح إرتفاعها بضعة أمتار فقط. ملقاة فوق الأرض ».

« السفير » - 1981/6/14

●

هكذا تحدث أحد الفنيين الفرنسيين الى الصحفيين في مطار اورلي، بعد عودته من بغداد .

●

أما أنا فقد كنت أحصي خسائري (الأرقام تتعلق بفرنسا فقط،

وليس بإيطاليا والبرازيل والبرتغال) :

● 300 مليون دولار، كلفة تشييد المفاعل.

● 10 ملايين طن بترول سنويا، كلفة التجهيزات والخبرة الفرنسية.

● ألف وخمسمائة مليون دولار عقود إستيراد أسلحة من فرنسا.

« الغارديان » 1981/8/9

ما أزال أحصي خسائري :

إن عراقاً ديمقراطياً، قوياً، سيداً، هو أبهى ما تنتظره قضية الثورة والتحرير في الوطن العربي.

لكن قوة هذا العراق لن تأتي على أيدي جاك شيراك وجيسكار ديستان.. لن تأتي على أيدي هؤلاء الشيراكيين والجيسكاريين الذين دأبوا على تزويد العدو بأدق المعلومات عن مفاعل يقومون هم بتشغيله، فوق الأرض، وتحت الأرض... قوة هذا العراق لن تأتي تحت مظلة « أواكس » والرادارات الهاشمية...

قوة هذا العراق لن تأتي على أيدي الغزاة النهابين الذين ظلوا يستنزفون دمه عبر شركات يابانية وأميركية وكورية جنوبية وسواها من الشركات متعددة الجنسيات.

قوة هذا العراق لن تأتي عبر المشاريع الهائلة التي دمرتها حرب نأسف لأنها وقعت.

واذا كانت الفاشية تؤدي الى الحرب، والحرب تؤدي الى الفاشية... فان عراقا ديموقراطيا ناهضاً سوف يضع حداً لهذا التداعي والانهيار والاستنزاف في هذا الجزء العزيز من الجسم العربي، ويمنح جيل الهزيمة وقفة كرامة وإستنفار، ويعلن بالصوت العالي : إننا أحياء.

ما أزال أحصي خسائري :

ثروة البترول الآيلة أساسا الى النضوب، تجري عملية تسريع لانضابها.

نشتري التكنولوجيا المتقدمة بأبهظ الأثمان، نشتري القدرة العسكرية بأبهظ الأثمان. . . ونجمع التكنولوجيا والأسلحة المتقدمة في معارض مكشوفة، نتفرج عليها، ونباهي بها دون أن نستطيع في الفعل والتخطيط حمياتها.

واذا بالدورة المعتادة تأتي، وكأنها تدهمنا. . . حسنا لقد إمتص الغرب عائداتنا لعشر سنوات، وكدس تقنية وأسلحة في معارضنا، ودارت عجلة إقتصاده كناعور يغرف من دمنا. . . وظل الشعب فقيراً متخلفاً. . .

وتأتي الدورة المعتادة، وكأنها تدهمنا :

مشاريعنا ومجمعاتنا الصناعية تسوى بالأرض. أسلحتنا تدمر. المفاعل النووي ينفجر متناثراً في سماء صافية. . .

ويجيء التصريح المرتقب :

« سنعيد بناء ما تهدم ».

وما دامت الأسس القديمة أسسا قديمة، فلسوف تمر بنا الدورة الجهنمية ذاتها. . دورة الرعب البارد.

●

لقد شبهت جريدة « فلسطين الثورة » تدمير المفاعل النووي العراقي، بالخامس من حزيران 1967 .

لكن هزيمة 1967 ، فجرت مراجعة عالية وصريحة لواقع الأنظمة، ولجغرافية الواقع العربي، ودفعت الى أمام حاجة ملحة للتغيير، وتحققت تغييرات، ومحاولات تغيير هنا وهناك، وأدت بفصائل وأحزاب وتنظيمات وسلطات الى مواقف ومواقع أكثر جذرية.

أما هذه الأيام. . . .

إنظروا الى الصحف والمجلات... إنظروا الى البيان السياسي لهذه الحركة أو تلك...

الصمت يطبق على الشفاه.

الصمت يسود الكلمات.

ان بركة راكدة يفسد نعمة ركودها حجر صغير يلقي به طفل. لكن مفاعلا نوويا، يعلو في الهواء، وينفجر متناثراً، كما يحدث على الشاشة السينمائية بالتصوير البطيء... مفاعلا إستغرقت عملية تدميره ثلاث ساعات في سماوات عربية متصلة... لا يثير كلمة إستنكار واحدة ضد أميركا وطائراتها الـ ف 16 وألـ ف 15... حتى من أفواه الذين يقولون أن المفاعل النووي هو مفاعلهم.

أذيع نبأ تدمير المفاعل عصراً.

كنت في بيروت، أنصت الى إنفجارات بعيدة.

كانت تلك الليلة كالكابوس.

ذهبت الى منزل شاعر عراقي صديق.

كانت عيناه محمرتين. وبدأ وجهه محتقنا. لم يكن ليستطيع الكلام إلا همهمة :

بغداد يقصفها الاسرائيليون.. من المسؤول ؟

بعد ليلة الكابوس، خرجت مبكراً. إصطدمت فعلا بروائي فلسطيني...

قال لي : ما بك ؟

وكأنه أدرك، من وجهي المفكر، أي ليلة قضيت.

ربت على كتفي :

لقد بدأ تدمير المفاعل، منذ أن أحرقت أول مكتبة في العراق

كان يشير الى ما كتبته في « الموقف العربي » عن « المكتبة الملعونة »...

الموت في المنفى



« أعلنت وكالة (وفا) وفاة الطفل حسن عبد العواد الذي نقل الى مستشفيات الاتحاد السوفيتي للمعالجة على أثر إصابته في الغارة الاسرائيلية على الفاكهاني. وقالت الوكالة أن الطفل هو آخر من تبقى من عائلته التي أبادتها الغارة البربرية.

من جهة ثانية نعت (وفا) مراسلها في مدينة براغ، شمران الياسري، الذي قضى في حادث مؤسف ».

« السفير » **1981/8/17**.

●

الطفل حسن عبد العواد، والروائي شمران الياسري، يموتان بعيداً عن الأرض التي كان ينبغي أن يعيشا فيها.

إنه الموت في المنفى. . الأسباب تختلف ظاهراً، لتتماثل جوهراً.

●

ربما كانت شهرة شمران الياسري (أبو قاطع) خارج العراق ليست بقدر شهرته داخل وطنه.

انه، منذ 1958 ، كاتب جماهيري حق.

بدأ في الاذاعة الوطنية ببرنامج شعبي اسمه « بصراحة »، موجه الى الجماهير الواسعة، والى الفلاحين بخاصة.

وحين لم تعد الاذاعة تتحمل برنامجه، حوله الى عمود يومي في صحيفة « إتحاد الشعب »، ثم في « طريق الشعب » بعد أن صدرت علنية.

كان شمران الياسري فلاحاً. فلاحاً حقيقياً. فلاحاً مناضلاً. بعد 1963 ظل سنوات على صهوة جواده، يجوب قرى الفرات الأوسط ومضاربه.. بندقيته الى جانبه، وآلة الطباعة على الصهوة. ربما كانت الجريدة التي أشرف عليها أول جريدة سرية في العالم تحرر وتطبع على ظهر جواد. في 1969 ، بعد عودة مجلة « الثقافة الجديدة » الى الصدور كان المسؤول الفعلي عنها، واشترك عام 1972 ، كما أتذكر في ندوة المجلات العربية، التي أقيمت ببيروت، باعتباره رئيس تحرير « الثقافة الجديدة ». شمران الياسري غادر بلاده أواخر عام 1977 ولم يعد اليها ولست أدري ان كان سيسمح بدفنه في أرض العراق التي أحبها وكتب عنها، وعن أناسها، بتلك الحميمية المتميزة التي لم يمتلكها سواه في مجاله..

إن شمران الياسري هو مؤلف أول رواية فلاحية عربية. إنها رباعيته الشهيرة التي تعتمد مادة حية وزمنا متحركاً حافلا قبيل ثورة 14 تموز 1958 : حركة الفلاحين ـ الثورة ـ الاصلاح الزراعي ـ الانقضاض على الاصلاح الزراعي.

كما كتب رواية اخرى كان ينتظر متلهفا صدورها في بيروت.

كان يجمعني الى شمران الياسري، شيء أبعد من العمل الصحافي في « اتحاد الشعب » و« طريق الشعب ».

انه الاعجاب الغامر الذي أحس به إزاء هذا الفلاح المرهف، المرهق بالعمل، الذي دأب على تطوير نفسه، وأخذها بالشدة حتى امتلك أدوات ليست هينة إطلاقاً.

وهو أيضاً الاعجاب الغامر بالنظر الثاقب الذي كان يتحلى به، والقدرة على إستكناه النتائج من مقدمات متحركة لم تستقر بعد.

وهو الاعجاب الغامر بنفس رضية مطمئنة، تستجلب بالايماءة والكلمة العذبة ثقة لا حد لها، وعلاقة هي الى الحنان أقرب.

ودعته في العراق سنة 1977 ، ورأيته في بيروت سنة 1980 ، كان مريضا بالمستشفى يتغذى بالأنابيب.

أذكر انه إشترى قميصين فوجدهما واسعين بعض الشيء.

أهداني القميصين، وأهديته أشرطة أغان لبنانية، وتسجيلا لتلاوة من الذكر الحكيم.

قبل أشهر تلقيت منه رسالة يدعوني فيها الى زيارة براغ هذا الصيف.

قال إن في بيته متسعا لي ولأسرتي.

لم أذهب الى براغ.

ولست أدري ان كنت سأذهب الى براغ، البتة، فقد رحل عنها شمران.

التكوين الصعب

كان ذلك عام 1957 ، م، في الكويت.

لست أتذكر، تماما، في أي مناسبة التقيته، أو أي مكان. لكن ربما حدث ذلك في احدى متوسطات الكويت الكبرى، حيث كان « يدرس ؟ »...

آنذاك كان النشاط الثقافي يتخذ مظهراً يكاد يكون الوحيد، وهو النوادي الثقافية. وكان لغسان دوره ونفوذه في تنشيط العمل الثقافي. ودفع هذه النوادي الى صيغ في العمل ذات فاعلية.

أما النشاط السياسي، فقد كانت حركة القوميين العرب تنهض فيه بمسؤولية واضحة. ولغسان موقعه في الحركة. انني اذكر جيدا، حملات الدعاية، وجمع التبرعات، وارسال المتطوعين الى لبنان.

لم تكن لي علاقة سياسية بالرجل. لكن كانت تربطني به، وبأعزاء من حركة القوميين العرب، صداقة ما تزال حميمة حتى اليوم، بالرغم من تقلب الزمن، ومر السنين، واشتباك المواقف. آنذاك، كنا نحس بأننا ننشط في قضية تستدعي جهداً كاملا متكاملا...

ونلتقي من جديد عام 1959 م.

وغسان ما يزال في الكويت.

كان العراق قد أزاح الاغلال، وانطلق في التجربة. وكانت

لغسان، شأنه شأن رفاقه في حركة القوميين العرب، مواقف سلبية واضحة تجاه ما يجري في العراق، بل تجاه الماركسية، فلسفة ودليل عمل، وحين وكنت أناقشه بأن الوزارة العراقية لم تكن لتضم حتى شيوعيا واحدا، كان رده أن العديد من الوزراء ماركسيون، وبضمنهم ممثلو كامل الجادرجي الذي كان يرى فيه غسان، ماركسيا، « لأنه يعترف بالمفهوم الماركسي للطبقات ».

أحسست بأن الرجل الذي أعرفه، ذا العينين الخضراوين الصافيتين، والحركة المتقدة، جالس في غرفة ضيقة، وأنه لا بد أن يضيق بهذه الغرفة ذرعا.

لم أكن لأصدق ان غسان 1957 هو نفسه غسان 1959 .

وأفترقنا على أمل لقاء قريب.

لكن الأمد طال، وتغيرت أنظمة وتنظيمات، واختلفت مسالك والتقت اخرى.

وغسان كنفاني في بيروت... « الأنوار » و« الهدف ».

في أواخر 1971 زرته في « الهدف »، وكان معي ابراهيم زاير. تحدثنا عن الرحلة الطويلة التي قطعناها، عن الكويت، وعن أصدقاء مشتركين لنا.

كانت عيناه الخضراوان أكثر صفاء ونفاذاً.

وأحسست أنني ألتقي في 1971 الرجل الذي عرفته عام 1957 وافتقدته عام 1959 .

لكنه كان قد قطع الشوط الطويل النبيل، شوط التربية الذاتية الصعبة التي كونت مثقفاً ثورياً من طراز متقدم، ومبدعاً وضع إبداعه في مسار القضية السامية لشعبه، وللعالم، ومناضلاً وجد في الماركسية دليل عمل،وفلسفة، عبر إختيار بطيء... الا أنه اختيار واثق، واثق من نفسه في الأقل.

في 1979 ، وفي مقبرة الشهداء، ببيروت، كنا أمام غسان. الزهور

تترقرق كالدموع، وعينا غسان كنفاني الخضراوان الصافيتان تقولان لنا ما لم يقله أحد، ما لم يقله حتى غسان نفسه.

1981/7/11

الى أين نذهب ؟

تراودني أحياناً، تحسسات عن الاستقرار. أقول ان السنين تتقدم بي، وان ولدي يطاولني قامة. . أقول ان موهن الليل ماثل، وأن الروح ستنفخ الشراع.

تحسسات الاستقرار هذه، آذتني. جعلتني أرضى برتابة ما في العمل والحياة، أنال بعدها (بعد ربع قرن من الخدمة العامة) مرتباً تقاعدياً، وان كان لا يكفي حتى لاستئجار بيت لائق. . بل قد دفعتني هذه التحسسات الى شراء قطعة أرض (ثلاثمائة متر مربع). . . أبني فوقها داراً أو قبراً. الدار لم تبن، والقبر أيضاً. وربما صودرت هذه الأمتار الثلاثمائة (حصتي الوحيدة من الوطن). والمرتب التقاعدي تلاشى.

الأمر ليس مدعاة للجزع، على أي حال.

لكنني سألت : الى أين نذهب ؟

وكنت أعني الشعراء، خارج السلطة. . هنا، أو هناك، على إمتداد الأرض العربية.

مسكونون نحن بالثورة.

لكن علينا الا نسكن فيها.

هذه مسألة يشترطها الشعر.

الى أين نذهب، إذن ؟

ها هي ذي ثغور العرب، وعواصمهم، وحواضرهم. . . تدخل في « زنقات » فاس،

تختبىء في بساتين النخل عند « بسكرة ». . .

تكون داخل جرة فخار بمرسى تونسي.

تكمن في « درنة ».

وما تزال أمامك : المنصورة وغزة هاشم والقنيطرة وجبل سنجار، صنعاء، وعدن، والاحساء ودلمون والضالع. . . حيث أقام القرامطة المساواتيون دولتهم.

الى أين نذهب ؟

مطرودين مطاردين، حتى في الذاكرة المستقرة، مثل الذئاب العاوية.

مطرودين مطاردين، حتى في ذاكرة الذين يرون الثورة نفسها إستقرارا مؤسساتيا.

مطرودين مطاردين، حتى في ساحة الثورة، حين يكثر الراقصون والزامرون.

الى أين نذهب اذن ؟

81/5/18

قائد الكتيبة



كل صباح، وأنا أتمشى على سيف البحر، كنت أراه.

كل صباح كانت القواقع والأصداف تستهويني، فلا يصل بيني وبينه الا سلام عابر.

كل صباح أتجه الى ألوان البحر وأخلف ألوان البشر.

لكنه يظل ثمت، في موضعه من الشاطىء. قارب الصيد مستقر على الرمل، والشباك منفرشة، وهو جالس يدخن. هادئا، بين النوارس والغربان، والى جانبه تقعي كلبة كسول.

كل صباح كان يفرغ عيون شبكاته من كائنات البحر.

مرجان. صغار سمك القرش. أسماك ذات خطوط حمراء سوداء، أسماك مجنحة. أشنات، قرش ضخم، والواضح انه ينطلق ليلا الى البحر، ويعود صباحا، فكلما نظرت الى الزورق وجدت فيه فانوسا.

مسيرتي اليومية مستمرة.

والرجل مستمر في نظام الحياة الذي أراده.

إذن ، لا بد من أن نلتقي يوما.

هذا اليوم جاء سريعا :

حل في الفندق البحري صديق فلسطيني قديم، عرفته منذ ربع قرن.

في الصباح التالي، التقينا مصادفة، على الشاطىء.

الرجل ما يزال ثمت.. في موضعه من الشاطىء.

قارب الصيد مستقر على الرمل، والشباك منفرشة، وهو جالس يدخن هادئاً.

ذلك الصباح لم يكن سلامنا عابراً.

جلسنا. دخنّا معه. سألنا: من أين؟ أجابه الصديق: من فلسطين. أما أنا فقد صمت.

قال الصياد: من فلسطين؟ أنا ايضا كنت في فلسطين؟

ـ كيف؟

ـ ولدت في الشمال، غير بعيد عن صنعاء، وذهبنا الى السودان.

في إحدى السنوات قيل لنا.. أهل اليمن يذهبون الى فلسطين.. لم تكن لنا دولة، ولا جيش، لكن اليمانيين في السودان، أجمعوا أمرهم، ورفعوا (بنديرهم) وذهبوا الى فلسطين.. وأنا بينهم.

من كان قائدنا؟ باشا... عزام باشا.. ذهبنا الى فلسطين ورفعنا (بنديرنا).

ـ اين كنتم في فلسطين؟

ـ لا أدري، لكننا رفعنا (بنديرنا) على جبل.

ـ هل حاربتم؟

ـ حاربنا.. لكن العرب حاربونا.. العراقيون أطلقوا علينا مدافعهم، قتلوا أثنين منا. كنا نريد البقاء فوق ألجبل، حيث رفعنا (البندير)...

ـ وماذا جرى فيما بعد؟

ـ قبضوا علينا جميعا. ثم وضعونا، سجناء، في سفينة، وسلمونا

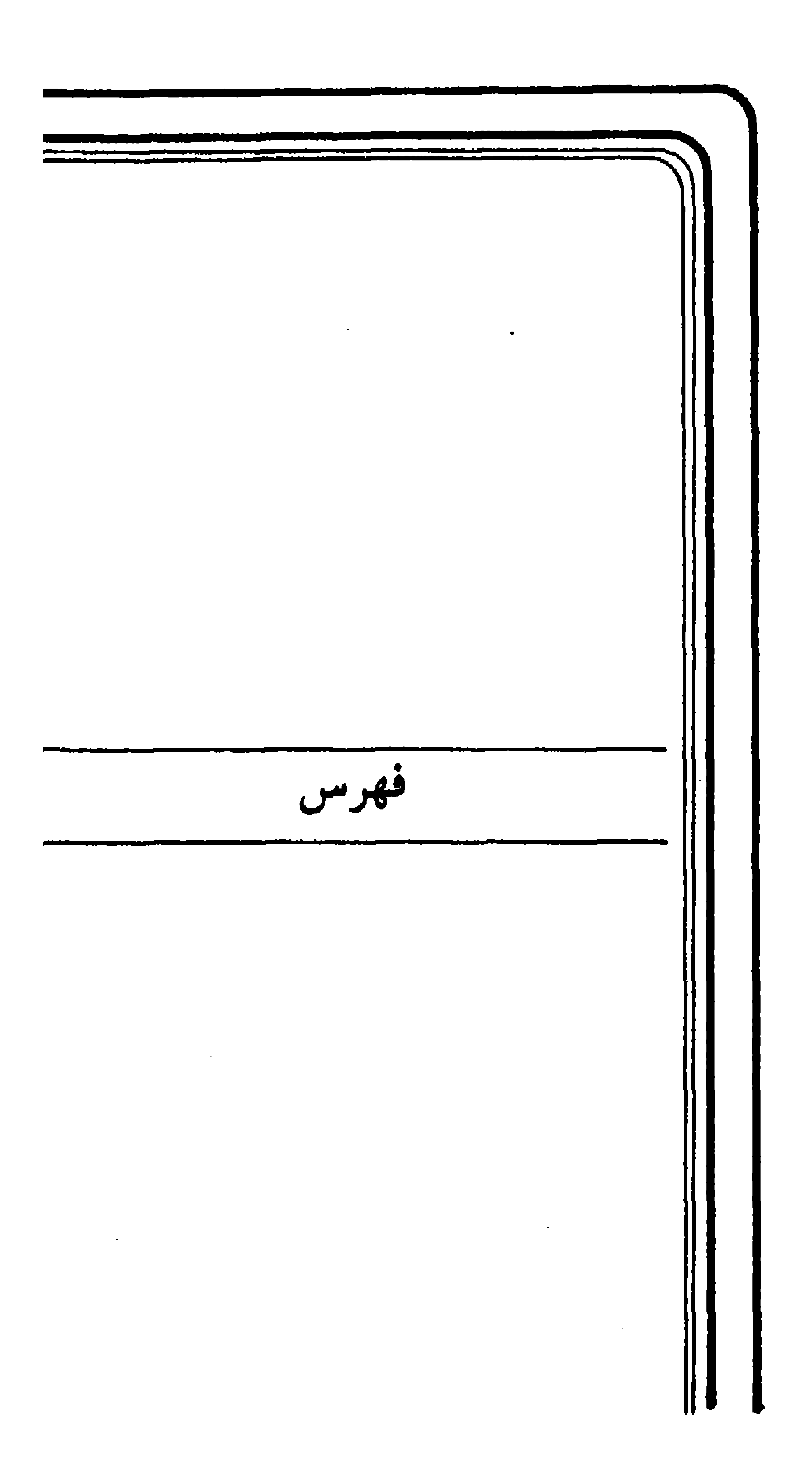
الى الامام. أقول لك الحق.. لم يحاربنا اليهود. العرب حاربونا. قتلوا أثنين منا. لم يتركونا نحارب.

دخنا ثانية مع الصياد. كان الصمت سيدا. وهمست لنفسي: أمر حسن انني أخفيت عراقيتي. وأخذت أفكر بهذه المصائر الفريدة، امرؤ يولد قرب صنعاء، ويشب في السودان، ويقاتل في فلسطين، ويصطاد أسماك القرش الصغيرة في خليج عدن..

رجل في الستين مثله.

أي كتيبة للثورة والحرية كان سيقود!

1981/5/18



فهرس





لوتس: منار 3 - شارع X - ڤيلا 94
هاتف: 239851 - ص. ب: 1049/488 تونس - حشاد